الموسوعة التاريخية
للخلفاء الفاطميين

٩

المستعلي بالله

تأليف: الدكتور عارف تامر

دار دمشق
دار الجيل

الموسوعة التاريخية
للخلفاء الفاطميين

كتابخانه
مركز تحقيقات كامپيوتري
شماره ثبت: ١٨٧
تاريخ ثبت:

الخليفة التاسع:

المستعلي بالله



تأليف

عارف تامر

دكتور في الآداب



دار
الجيل

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الاولى

١٩٨٠ م ـ ١٤٠٠ هـ

يمنع الاقتباس او النقل او اي تصرف كان الا باذن من المؤلف

الخليفة الفاطمي التاسع

اسمه : المستعلي بالله . . . لقبه : أحمد . . . كنيته : أبو القاسم . . . ولد في القاهرة « المعزيّة » سنة ٤٦٧ هـ . . . تسلّم الخلافة سنة ٤٨٧هـ. بعد وفاة والده الخليفة « المستنصر بالله » وكان ابن عشرين عاماً ... مدة خلافته سبع سنوات وشهران ... توفي سنة ٤٩٥ هـ. وكان عمره سبع وعشرون سنة وسبعة وعشرون يوماً . . . والدته هي شقيقة « الأفضل بن بدر الجمالي » وكان والده قد تزوجها سنة ٤٦٦ هـ . أخوته من أبيه هم : نزار ، محمد ، عبد الله ، جعفر ، داؤد .

بداية النهاية

ذكرنا في الأجزاء السابقة من هذه الموسوعة التاريخية بأن للدول وللممالك أعماراً محدودة كما للإنسان ، وان ما يزيد أو ينقص فيكون لعللٍ وأسباب ، فالدول عادة تبد صغيرة ، ثم تشب وتترعرع وتدخل مرحلة الشباب وما بعده حتى تصل أخيراً إلى حافة الشيخوخة حيث الوهن والانهيار ثم الموت ، والدولة الفاطمية التي نحن بصدد التحدث عنها وصلت في عهد الخليفة الثامن « المستنصر بالله » إلى ذروة المجد والرفعة بحيث امتدت رقعتها إلى مناطق بعيدة ، وإننا لا نغالي بأن نفوذها لم يكن يغيب عنه الشمس . . . هذا في أوائل عهد « المستنصر بالله » أمّا في آخر عهده فقد ظهر على الأمبراطورية « الفاطمية » الكلال والوهن والشيخوخة ممّا أعطى الإنذار الأخير بأنها كانت في طريق النهاية تجتاز المرحلة الأخيرة من حياتها وهذا ما قصدناه بكلمتنا « بداية النهاية ».

إن زواج الخليفة « المستنصر بالله » في آخر أيامه من ابنة وزيره الأول وقائد جيوشه « بدر الجمالي » عجّل بالقضاء على الدولة بحيث افسح المجال لبروز الخلاف بين الأخوة على مركز الخلافة ، ثم حدوث الانقسام الرهيب ، وهكذا تغيرت النظم والقوانين وذهبت الشرعية عن قاعدة الدولة التي هي « الخلافة » حينما تسلّمها بالقوة شاب في مقتبل العمر اشتهر بضعفه وانهياره بفضل تأييد الجيش . فدبّ الفساد . واستعمل السلاح . وهدرت الدماء وانقسمت الدولة إلى فريقين متحاربين ممّا شجع الأقاليم والبلدان التي كانت خاضعة لها على الانفصال والاستقلال . وظلّت مصر وحدها عرضةً لشتى الاحتمالات والتقولات .

أجل . . . مرّ معنا ان الخليفة « المستنصر بالله » جاء « ببدر الجمالي » الأرمني الجنسيّة ، فسلّمه الوزارة الأولى ، والقيادة العليا ، ثم عهد إليه بوظيفة « داعي الدعاة » ولم يسبق لأحد من الرجالات الذين خدموا الدولة الفاطمية أن وصلوا أو حازوا على مثل هذه الثقة ، فتسلّم « بدر » المناصب المذكورة وعظم نفوذه لدرجة أنه استولى على صلاحيات الخليفة من طرف خفي . ويعلل المطلعون ذلك إلى زواج « المستنصر بالله » من ابنته . . . فهذا الزواج منحه الثقة والتأييد

وبارك له كل عمل كما أطلق يده بالتصرف المطلق بشؤون الدولة سواء الداخلية أو الخارجية ، وقد كنّا فصلنا في الجزء الثامن ما قام به من أعمال ، وما قدمه من خدمات ، وبعد موته عيّن الخليفة « المستنصر بالله » ولده « الأفضل » مكانه ، وكان « الأفضل » قد تمرّن على شؤون الحكم والإدارة ورافق والده في فتوحاته وحروبه ، فتسلّم ما عهد إليه به ، ولم يمض على ذلك سوى بضعة شهور حتّى مات بعدها « المستنصر بالله » وبموته حدثت الفتنة الكبرى ووقعت الدولة في هوة سحيقة ظلّت تتخبط فيها حتّى أدركها الفناء .

ولاية العهد

التقليد الفاطمي الذي كان سائداً لدى هذه الأسرة الحاكمة يقضي على الخليفة أن ينص بولاية العهد على ابنه الأكبر إلاّ في الحالات الاستثنائية والظروف الخارجة على المألوف ؛ وقد تأكّد لدينا بأن الخلفاء الفاطميين أنفسهم ودعاتهم كانوا يعتبرون تسمية « ولي العهد » واجب ديني مقدس أناطه الله بالخليفة ، وهذا نص ورد في كتاب « المجالس والمسايرات » للقاضي النعمان بن حيّون التميمي ورد على لسان الخليفة الفاطمي «الثالث « المنصور بالله » حين خاطب ولده « المعز لدين الله » :

« والله ما أنا أثرتك بما أثرتك به ؛ بل الله أثرك واختصك وأعطاك واجتباك . . . والله لو ملكت الدنيا درهماً فما فوقه من غير هذا الوجه لما استجزت أن أخصّ به أحداً من ولدي دون أحد ، فأمّا ما خولني الله من الكرامة واصطفاني به من

الإمامة فإنما هو متاع عندي ، وعارية في يدي إلى انقضاء المدة وتمام العدة ، ثم هو لك بحكم الله وأمره ، وإعطائه ليس من أمري وحكمي واختياري واختصاصي إيّاك به » .

أجل . . . كان الخلفاء الفاطميون يعدون أولياء العهود إعداداً دينياً وسياسياً فيحتمون عليهم الاطلاع على أسرار الدين والتمعن فيه حتّى يصبح صالحاً للزعامتين الدينية والدنيوية ، ومن جهة أخرى كان مفروضاً على الخليفة أن يعين من يخلفه قبل أن يموت وأن يشهد على هذا التعيين أخلص الناس إليه ، وقد ثبت أن « المستنصر بالله » أوصى بالخلافة لابنه الأكبر « نزار » وهذا موضوع لا يحتاج إلى نقاش لأن كبار الدعاة الفاطميين ورجالات الدولة كانوا ينادونه بهذا الاسم في حياة أبيه ، وبعد وفاته رأى « الأفضل الجمالي » قائد القوات والوزير الأول أن يولي الخلافة ابن شقيقته « المستعلي بالله » وذلك حتّى يبقى في مناصبه ، ويقال انه آثر الانتقام من « نزار » الذي كان يقول ويردّد : « لا بد من إبعاد هذا الأرمني القذر ».

وقوع الفتنة

وهكذا لم يكن بالأمر السهل تلافي وقوع الفتنة الهوجاء . وعلى الأخص بعدما أصدر « الأفضل » بياناً وزّعه على الأقسام الخاضعة للدولة الفاطمية وفيه يقول :

إن الخليفة « المستنصر بالله » أوصى بالخلافة « للمستعلي بالله » قبل وفاته ، وان وثيقة رسمية موقعة ومدعومة بالشهود موجودة في القصر تثبت ذلك .

أمّا « نزار » فإنه بالمقابل أذاع بياناً وزعه في جميع أنحاء البلاد اتّهم فيه « الأفضل » بالاعتداء على أقدس المقدسات الفاطمية ، وذكّر الناس بالوصية العلنية التي كان يذيعها الخليفة « المستنصر بالله » على الشعب ، والتي سمّى فيها « نزاراً » وليّاً للعهد وذلك منذ أربعين عاماً . وقد رافق كل هذا استنفار قوى كل من الفريقين والاستعداد للقتال .

ذكر التاريخ :

إن « نزار » وأخوته الأربعة وباقي أفراد عائلاتهم التحقوا بالاسكندرية واعتبروها عاصمة لدولتهم « النزارية » ، وكان قد أيّدهم القائد « أفتكين » ناصر الدولة وفريق من الجيش كما انضمّ إليهم حاكم الاسكندرية الذي دعا الناس فوراً إلى مبايعة « نزار » بالخلافة ، وكل هذا حرّك عليهم « الأفضل » فجرّد حملة كبرى وتوجه إلى الاسكندرية فتمكن منذ الجولة الأولى من قتل « أفتكين » وحاكم الاسكندرية ، والقبض على « نزار » وأخوته وباقي أفراد العائلة من الذكور وقادهم إلى القاهرة حيث سجنهم مدة ثم قضى عليهم فيما بعد أي سنة ٤٩٠ هـ .

وهكذا انطوت صفحة « نزار » قبل ولادتها ، فهذا الإمام السيء الحظ الذي لم يكتب له الظهور على مسرح الخلافة ولد سنة ٤٣٧ هـ. وعاش في كنف والده « المستنصر بالله » إحدى وخمسين عاماً ، وكان معروفاً بأنحاء الدولة بأنه ولي العهد والخليفة المرتقب ، أما أخيه الأصغر « المستعلي بالله » فقد تسلّم الخلافة الفاطمية ولكن على بحر من دماء أخوته لهذا فإنه كان زاهداً بالحكم ، وقد أمضى مدته دون أن تصدر عنه بادرة «ا تاركاً كل الأمور لخاله مستسلماً للأقدار ، متبرماً بالناس مؤثراً العزلة حتى وفاته في سن مبكرة .

الدولة النزارية
في فـارس

مصادر التاريخ للفرقة «المستعلية – البهرة» بفرعيها «الداؤدية» و «السليمانية» تذكر :

بان «الأفضل الجمالي» قام بعملية إبادة بالنسبة «لنزار» وأخوته وأولادهم جميعاً فلم يترك منهم ذكراً حياً ، بينما مصادر التاريخ «النزاري» تؤكد بأن «حسن الهادي» وهو الابن الأكبر «لنزار» تمكن من النجاة ، وذهب إلى إيران بصحبة موفد «حسن الصبّاح» وهو رجل فارسي اسمه «شاه زاده آسد» كان قد هبط القاهرة ، واتصل بالداعي الفاطمي «حسن بن سعيد» الذي ساعده على تخليص «حسن الهادي» من قبضة «الأفضل» والتوجه به إلى إيران حيث أعدّ له «الحسن بن الصبّاح» «دولة ألموت النزارية» التي كانت تبسط نفوذها على الإسماعيليين في سورية والعراق

وفارس والسند ، وكان يعاون « الصبّاح » القائد الفارسي « كيا بزرك آميد » أمّا اليمن فظلّت مع مصر على ولائها لدولة « المستعلي » الجديدة .

وهنا نقف وجهاً لوجه أمام المصادر التاريخية العديدة التي يخرج بعضها عن حدود المألوف ، فقد ذكر بعضهم أقوالا غير واقعية عن الدولة النزارية كالطعن في شخص « حسن بن الهادي » واعتباره من ولد « حسن الصبّاح » ويدعمون أقوالهم ببيانات تؤكد مقتل نزار وجميع أولاده . . . الخ .

إن هذه المزاعم «لفّقها» وفصّلها دعاة «المستعليين » وغايتهم هي الانتقاص من قدر « النزارية » وطعنها في الصميم والحقيقة فإن مثل هذه المزاعم ألفها الناس وأصبحت قاعدة عامة ينطلق منها كل الذين يهمهم طعن الحقيقة والقضاء على الواقع والتاريخ.

أمّا « المستعلية » التي أكملت المسيرة الفاطمية بقوة الحراب وبالقضاء على الشرعية ، فهذا الاستمرار لم يدم طويلاً ، لأن بعد « المستعلي بالله » جاء « الآمر بأحكام الله » وبعد « الآمر » انتهت الدعوة « المستعلية » فتسلّمها أشخاص من الأسرة الفاطمية ولكنهم لا ينحدرون من الخلفاء مباشرة .

ذكر التاريخ :

بأن « الآمر بأحكام الله » الذي تسلّم الخلافة بعد « المستعلي بالله » لم ينجب أولاداً ، وانه قتل وامرأته حامل « بالطيّب » وهو الوريث الذي يدعي « المستعليون » أنه ولد ودخل في السّر والسرية ، وأنه سيعود ليملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً . . . ويقول « النزاريون » :

إن هذه القصة تدخل في عالم الأساطير ، ولا يمكن للعقل أن يتصورها ، أو يصدقها . . . ومهما يكن من أمر فإن الدولة الفاطمية بعد مقتل « الآمر بأحكام الله » تسلّمها أربعة هم :

« الحافظ » وقد حكم ثمانية سنوات وأربعة أشهر . . . و « الظافر » الذي حكم أربعة سنين وثمانية أشهر ، و « الفائز » الذي حكم ستة سنوات وخمسة أشهر و « العاضد » وقد حكم أيضاً إحدى عشر سنة وستة أشهر ، وفي آخر أيامه تسلّم « الأيوبيون » الملك وعادت مصر إلى ارتباطها السابق بالخلافة العباسية .

الافضل الجمالي
في عهد أبيه

من الثابت أن « الأفضل » اشترك في الوزارة مع أبيه وقد ذكر « ابن الصيرفي » المؤرخ ما يلي :

انتقل النظر إليه حين اشتد مرض والده في شهر ربيع الأول سنة ٤٨٧ هـ. ويستطرد في أن سبب تولية الأفضل في حياة أبيه هو طمع أحد رجال « بدر » ويدعى « لاوون » في الوزارة عندما رأى مرض سيده ، ولكنه لم ينجح في مسعاه وأسندت الوزارة للأفضل ، ويذكر المقريزي وابن ميسر : بأن « بدر الجمالي » استناب ولده « الأفضل » وجعله « ولي عهد » السلطنة ، ومهما يكن من أمر فقد جاء في السجلات المستنصرية أن « الأفضل » اشترك مع أبيه في تدبير الأمور منذ عام سنة ٤٧٩هـ. وأمر أن يدعى له على المنابر بعد الدعاء للخليفة ولأمير الجيوش « بدر » وفي ليلة عيد الفطر سنة ٥١٥هـ.

قتل « الأفضل » وله من العمر سبع وخمسون سنة إذ كان مولده « بعكا » سنة ٤٥٨ هـ. قتله أشخاص خرجوا عليه من دكان دقاق بالملاحين . وتختلف المراجع في سبب قتله ، فالبعض يذكر أن قاتليه هم من « النزارية » في حين يرى آخرون أن « الآمر بأحكام الله » ضاق بتحكم « الأفضل » واستبداده بالأمور فوقعت بينهما المباينة وأخذ كل منهما يعمل على التخلص من الآخر . . . وأن « الآمر » عزم على قتله داخل القصر ، ولكن ابن عم « الآمر » « الأمير عبد المجيد » حذره من ذلك وكان يرى أن يستميل « المأمون بن البطائحي » وهو ثقة « الأفضل » ويمنّيه بالوزارة على أن يدبر قتله . . . فتمّ الأمر على ما دبره « الأمير عبد الحميد » وذكر أن قتلته قتلوا في الحال حتى يضيع سرهم معهم .

هذا وفي الصفحات التالية سنتحدث عن « الأفضل » وأعماله وما حققه في حياته ، كما سنتحدث بإيجاز عن ولده « أحمد » الذي لعب دوراً مهماً في آخر عهد الدولة الفاطمية .

أخبار « الافضل »

« لمّا مرض « بدر الجمالي » مرضه الأخير رؤى أن يقلّد ابنه « الافضل » وظيفته ، فأمر الخليفة « المستنصر بالله » بإنشاء سجل قرىء في الإيوان بمرأى ومسمع من أمير المؤمنين ومن سائر أعيان الدولة وأشرافها وأمرائها وأوليائها وجنودها وخاصها وعامها . وأظهره على أعين الناس مجلبباً من التقليد والتفخيم والتعظيم مفاخر هي المفاخر والمعالي، وعقد له من ذلك ما خفض به سكب المعادي وأبهج قلب المعالي » .

وكان الأفضل قبل توليته الوزارة يحمل لقب : « عز الدولة غياث المسلمين ، صفوة أمير المؤمنين » . . . ولمّا اشترك مع أبيه في الحكم أصبح لقبه : « الأجل الأفضل . سيف الإمام ، جلال الإسلام ، شرف الأنام ، ناصر الدين ، خليل أمير المؤمنين ، أبو القاسم شاهنشاه » . . . وبعد وفاة

أبيه اتخذ ألقابه مع زيادة كلمة « الأفضل » التي صارت فيما بعد نعتاً خاصاً .

في سنة ٤٩٠ هـ وقع بمصر غلاء شديد. فوقعت المجاعة وفقدت المواد الغذائية وانتشرت الأوبئة . وقطعت الخطبة من دمشق للمستعلي واستعيض عنها بذكر اسم العباسيين . وفي هذا العام أيضاً خرج « الفرنجة » من القسطنطينية وغايتهم استملاك سواحل الشام وغيرها . فملكوا انطاكية بادىء ذي بدء ثم بدأوا بالزحف . ويبدو أن الدول العربية لم يتفهموا الحركة الصليبية في بادىء الأمر . ولم يتبينوا غرضها فظنوها مثل الحملات التي كان يشنها البيزنطيون بين الحين والحين . لذلك لم يهتموا باتخاذ أي إجراء لدرء هذا الخطر الفادح ، ولعلّ الخلافات الداخلية والخصومات المتأججة بين الفاطميين والعباسيين وقفت حائلاً دون اتخاذ أي موقف مشترك . وهكذا وجد الصليبيون الطريق مفتوحاً أمامهم لامتلاك معظم بلاد الشام . ولم يفق المسلمون من سباتهم حتى كان الجيش الصليبي يوطّد أقدامه في الشام .

وقد اتهم المؤرخون « الأفضل الجمالي » بمحاولة الانضمام للصليبيين . والاستعانة بهم في القضاء على أعدائه « السلاجقة » واعتبروا ذلك تنكراً من الأفضل لإسلامه وعروبته . ولكن

عندما نحاول دراسة موقفه من خلال ما ذكرناه آنفاً والدوافع التي ألجأته إلى ذلك نصل إلى نتيجة تتلخص :

بأن مصر قبل وصول بدر الجمالي كانت قد وصلت إلى حالة من الفوضى والبؤس صوّرها لنا المؤرخون بصورة مؤلمة ، وانقسم الجيش على نفسه وأخذت فرقه المتنازعة تعيث في البلاد فساداً ، وبرغم نجاح « بدر وابنه » من بعده في القضاء على عوامل الفساد ، والخروج بالبلاد من أزمتها الاقتصادية إلا أن ذلك كله ترك أثره في إضعاف قوتها الحربية . مما جعل « بدراً » يعجز عن استرداد ما ضاع من أملاك الفاطميين في الشام ، زد على ذلك ما حدث في أول وزارة « الأفضل » من انقسام بين صفوف الفاطميين وظهور فرقتين متعاديتين هما : « النزارية » و « المستعلية » وما تلا ذلك من جهود قام بها « الأفضل » للقضاء على ثورة « نزار » . . . هذا من الناحية الداخلية ، أمّا من الناحية الخارجية فإن مصر أصبحت في تلك الفترة أمام خطر يسعى للقضاء عليها . . . ذلك هو خطر السلاجقة السنيين الذين استولوا على معظم أجزاء الشام ، وأصبحوا يهددون مصر نفسها محاولين القضاء على الدولة الفاطمية ومذهبها الديني .

ولقد كان العداء بين هاتين القوتين عداء عنيفاً عميقاً

جعل اية مهادنة بينهما غير ممكنة . وقد رأينا كيف كان كل من الفاطميين والعباسيين يحاول الاستعانة بالبيزنطيين ضد عدوه الآخر . زد على ذلك ما لمسناه من تسامح ديني نعم به المسيحيون في بلاد الإسلام ، والمسلمون في بيزنطة بوجه عام إلاّ في فترات ، فكان للمسلمين مساجدهم في القسطنطينية وغيرها من بلاد الروم كما كانت كنيسة القيامة في القدس في حماية المسلمين ، ويفد إليها المسيحيون من كل البلاد دون عائق ، كما أن الفاطميين استعانوا بوزارة من المسيحيين واليهود ، وكان من المألوف أن يستعين الحكام المسلمون في بعض الأحيان بالبيزنطيين ضد بعضهم البعض ، أو يستنجد البيزنطيون بالأساطيل المصرية ضد منافسيهم المسيحيين بصقلية ، فالأفضل على ما يبدو لم يرَ مانعاً من الاتصال بالصليبيين خصوصاً وأنه كان ينظر إليهم كمجرد مرتزقة تابعين للأمبراطور البيزنطي .

لذلك عندما علم « الأفضل » بوصول الفرنجة إلى أنطاكية أرسل إليهم مندوباً يدعوهم إلى المفاوضة مقترحاً تقسيم الشام ، فيكون شمال سورية من نصيب الفرنجة ويستولي الفاطميون على فلسطين ، ولكي يجعل لاقتراحه قوة خرج إلى فلسطين واستولى على بيت المقدس في رمضان سنة ٤٩١ هـ .

وقد استقبل الصليبيون هذا المندوب بالتكريم بالرغم من أنهم لم يدخلوا معه في أية مفاوضات ، وعاد المندوب محملاً بالهدايا . . . ثم أن الصليبيين أكملوا زحفهم وكانت وجهتهم بيت المقدس ، وقد استغلوا التفكك الحاصل بين الحكام المسلمين ، فأرسلوا إلى « دقّاق » صاحب دمشق يطلبون منه عدم التدخل وأنه لا مطامع لهم في ممتلكاته . . . وهكذا سار الصليبيون عن طريق الساحل ، وقد أمنوا تدخل أمراء المسلمين ، فوصلوا إلى بيت المقدس التي كان « الأفضل » قد سبقهم إلى احتلالها ، ودارت المعركة الكبرى فيها وأخيراً سقطت بيد الصليبيين .

ومهما يكن من أمر فقد كان لسقوط بيت المقدس وقتل سبعين ألفاً من المسلمين صداه القوي في العالم الإسلامي ، إلاّ أن العباسيين لم يتمكنوا من مد يد المعونة نتيجة للفتنة الكبرى بين أمراء السلاجقة بعد مقتل « ألب ارسلان » والخلاف بين السلطان « بركيا روق » وأخيه « محمد » .

أمّا في مصر فقد عرف « الأفضل » — وإن كان ذلك متأخراً — طبيعة الحركة الصليبية ومدى الخطر الذي يهدد مصر والإسلام ، ومنذ ذلك الوقت حمل لواء الجهاد ضد الصليبيين ماداً يده إلى أمراء السلاجقة في الشام متناسياً ما بينهم من أحقاد

وخلاف . فخرج إلى « عسقلان » في شهر رمضان سنة٤٩٢ هـ. وأرسل إلى « الفرنجة » مظهراً لهم سخطه على ما فعلوه بالمسلمين ، ويبدو أنه كان يعتقد في إمكان استئناف المفاوضات معهم ، إلاّ أنهم بادروه بقواتهم ودارت معركة عنيفة كاد أن يقتل فيها « الأفضل » ولم ينج إلاّ بأعجوبة وقتل الكثيرون من جنوده ، وعاد هو بحراً إلى مصر وترك « عسقلان » لمصيرها ، ولولا وقوع الخلاف بين الصليبيين لأمكنهم فتحها . . . وبعد هذا لم يخرج الأفضل بنفسه لقتال الصليبيين ولكنه لم يأل جهداً في إرسال الحملة تلو الحملة ، ولم يبخل حتى بأولاده في جهاد الصليبيين ، كما حاول « الأفضل » عمل جبهة موحدة من مصر ودمشق ووجد استجابة من أميرها « طغتكين » ولكن كل هذا لم يقدر له البروز إلى عالم النور والفعل . . . فقد مات « الأفضل » ولم يبق بيد الفاطميين من بلاد الشام إلاّ « صور وعسقلان » .

وكان « الأفضل » قد خرج من القاهرة سنة٤٩١ هـ. على رأس حملة قوية للاستيلاء على بيت المقدس وكان عليها « سلمان وإيلغازي ابني أرتق » ولمّا رفضا تسليم المدينة دون حرب ، حاصرها مدة أربعين يوماً وأخيراً سلّم أهلها فدخلها واستقر بها وأكرم « سلمان وإيلغازي » وخلع عليهما كما

أخلى سبيلهما . . . ولكن « الأفضل » لم يهنأ طويلاً بانتصاره إذ سرعان ما استطاع الصليبيون فتح العديد من مدن الشام ثم الاستيلاء على بيت المقدس كما ذكرنا ، وكان لانقسام القوى الإسلامية ، والعداء القديم العنيف بين الخلافتين في بغداد والقاهرة أثره في الانتصارات السريعة السهلة التي أحرزها الصليبيون .. ولو ان الجبهة الإسلامية كانت متحدة لاستطاعت بسهولة القضاء على هؤلاء الغزاة الذين قطعوا المسافات الطويلة من غرب أوروبا إلى الشرق العربي ، ووصلوا إليه وقد أنهكهم التعب ودبَّ بين زعمائهم الخلاف .

ومهما يكن من أمر فإن الفاطميين بعد مقتل « الأفضل » فقدوا كل ما كان لهم في الشام من ممتلكات ، أي أن الدولة الفاطمية خرجت نهائياً من الشام وظلّ هذا الخروج حتّى نهاية الدولة الفاطمية ، وهكذا بالنسبة لشمالي أفريقيا فإنه سنة ٥٠٩ هـ. انقطعت كل صلة للدولة الفاطمية بالمغرب.

أما في النوبة فقد ساءت العلاقة في عهد « الأفضل » وقد ذكر التاريخ :

إنه سنة ٥٠١ هـ. وردت الأخبار إلى « الأفضل » بأن ملك النوبة قد تجهّز براً وبحراً وعوّل على قصد البلاد القبلية ،

فسيّر « الأفضل » جيشاً إلى « قوص » وتقدم إلى والي « قوص » بأن يسير بنفسه إلى أطراف بلاد النوبة . فورد الخبر بوثوب أخي الملك عليه وقتله واشتدت الفتنة بينهم حتى باء أهل المملكة ، وأُجلس صبي في الملك فأرسلت أمه تستجير بعفو « الأفضل » وتسأله أن يسيّر إليهم من يغزوهم ، فكتب لوالي الصعيد الأعلى بأن يسيّر عسكراً إلى أطراف بلاد النوبة ويبعث إليهم رسولاً يجدد عليهم القطيعة الجاري بها العادة وهي ثلاثمائة وستون « رامساً دقيقاً » كل سنة . بعد أن يستنفذ منهم ما يجب عليهم في السنين المتقدمة فلمّا دخلت العساكر نحوهم دخلوا تحت الطاعة وكتبوا المواصفات في الإعفاء عمّا يمضي من السنين وحملوا ما تيسر لهم وعادت العساكر كاسبة .

ويبدو أن العلاقات عادت مرة أخرى إلى الصفاء فلم نعد نسمع عن أي احتكاك بين البلدين على أن بلاد النوبة خرجت أيضاً عن دولة الفاطميين بمجرد أن أصبحت هذه الدولة في دور النزاع ، أي بعد مقتل « الأفضل » .

وبين هذا وذاك نستطيع القول بأن مصر الفاطمية بعد وفاة الخليفة الثامن « المستنصر بالله » لم يعد لها من الممتلكات لا في الشرق ولا في الغرب . وظلّت الديار المصرية وحدها تتنازعها الأيدي التي تسربت للحكم في الظلام بصورة غير شرعية :

ويجب أن لا ننسى بأن «الإمارة النزارية» التي قامت في «ألموت – فارس» كانت تعمل بجد ونشاط لتقويض أركان دولة «المستعلي». وقد ذكر التاريخ :

إن النظام والأمن كاد يضطرب في أرجاء الدولة الفاطمية بعد مقتل «الأفضل» لولا يقظة «المأمون البطائحي» الذي تولّى الوزارة بعده، إذ استطاع أن يعيد الأمور إلى نصابها ويحفظ في البلاد الأمن ويحميها من خطر «النزارية» وكان هدفهم إشاعة القتل وإحداث الفوضى في البلاد، ومن المعلوم أن «الحسن بن الصبّاح» فرح لموت عدوه الأول «الأفضل» وبعض المصادر تؤكد أنه هو الذي دبّر مؤامرة اغتياله، كما أنه هو الذي دبّر مقتل «الآمر بأحكام الله» ابن «المستعلي بالله» وذُكر أنه أرسل رسله وأصحابه إلى مصر ومعهم الأموال الكثيرة بقصد القيام باحداث الاضطرابات والاغتيال، وكان بعضهم قد اتخذ من «عسقلان» مقراً له، وهكذا أقدم «الوزير البطائحي» على صرف والي «عسقلان» وعين غيره بعد أن أوصاه بعرض أرباب الخدم بها وأن لا يبقي فيها إلاّ من هو معروف من أهل البلاد، وأوصاه بالاجتهاد والكشف عن أشخاص القادمين من التجار وغيرهم، وأن لا يثق بما يذكرونه من أسمائهم وبلادهم بل عليه أن يكشف عن

بعضهم من بعض ويفرق بينهم ويبالغ في ذلك ، ويحقق بمن وصل ممن لم تجر له عادة بالوصول إلى بلاده فليعقه بالثغر ويطالع مجاله وبما يحمله من البضائع . وكذلك الجمّالون عليه أن لا يمكن أحداً من الوصول إلى البلاد إلاّ من كان معروفاً متردداً ، ولا يسير قافلة إلاّ بعد أن يتقدمها كتابة إلى الديوان بعدة التجار وأسمائهم وأسماء الجمّالين وذكر أصناف البضائع ليقابل بها في مدينة بلبيس عند وصولهم إليها . وتقدم الوزير البطائحي إلى والي مصر والقاهرة وأمرهما أن يقوما بإحصاء شوارع القاهرة ومصر شارعاً شارعاً وحارة حارة بأسماء من فيها من السكان، وأن لا يمكنا أحداً من الانتقال من منزل إلى منزل إلى أن يخرج أمره بما يعهداه فيه . فلمّا وقف على أوراق الإحصاء وفهم أسماء أهل مصر والقاهرة وكناهم وأحوالهم ومعايشهم . ومن يصل إلى كل ساكن من سكان الحارات من الغرباء سيّر من قبله نساء يدخلن هذه المساكن ويتعرفن إلى أحوال « النزارية » في مصر فأصبحوا لا يخفى من أمرهم شيئاً ، أمّا الخوف فقد كان من « النزاريين » الذين يأتون من بلاد العجم لتنفيذ مؤامرات الاغتيالات والقتل .

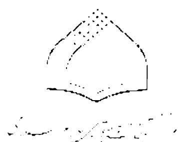
وفي إحدى حملاته على« النزارية » ألقى القبض على رجل منهم كان يقرىء أولاد الخليفة « الآمر بأحكام الله » وقد

مسلك معه المال الذي أرسله إليه « الحسن بن الصبّاح » كنفقة لبقية الرجالات الذين أرسلوا من قبله بمهمات .

والخلاصة فإن « الحسن بن الصبّاح » كان اسمه يبعث الذعر ويقض مضاجع الدولة « المستعلية » الفاطمية ... وعندما نعلم أنه صاحب مدرسة « الفدائية » الأولى في العالم وأول من اتخذ من الاغتيالات مبدأ عاماً لتصفية أعداءه ، وقد يكون من المفيد أن نذكر بأنه هو صاحب فكرة اغتيال الوزير « الأفضل » كما أنه صاحب فكرة مقتل ولده « أحمد » وهذا بالإضافة إلى اغتيال الخليفة « الآمر بأحكام الله » ابن « المستعلي بالله » . وغيره من الشخصيات البارزة المعروفة بعدائها « للنزاريين » أو التي سبق لها أن اشتركت أو قامت بأعمال ضد « النزاريين » .

ومهما يكن من أمر فكل هذا عجّل بذهاب هذه الدولة الكبرى ومهّد لظهور الأعداء على الساحة وقيامهم بتنفيذ الأدوار للقضاء النهائي على الدولة الفاطمية التي أفسحت المجال في أيامها الأخيرة أي بعهد « المستنصر بالله » لادخال العناصر الغريبة إلى حرم الدولة وإعطائها المناصب العليا وإطلاق يدها تتصرف كما تشاء ، ويجب أن لا نستثني « بدر الجمالي » الأرمني وولده « الأفضل » اللذان اغتصبا الشرعية وأقاما

مكانها خلافة واهية ليظلا في الحكم ولإرضاء نهمهما وإشباع رغباتهما وتنفيذ مأربهما بالقضاء على تلك الدولة الحضارية التي سبقت عصرها بمراحل بما أقامته من منشئات علمية ، وبما حققته من منجزات في شتى الحقول العمرانية والثقافية والاقتصادية .



بين المستعلي « والافضل »

وقف التاريخ صامتاً أمام الخليفة الفاطمي الجديد « المستعلي بالله » ولم يتناوله بالحديث إلا لماماً . وكأن الفترة التي قضاها في الخلافة وهي سبعة سنوات لم تكن محسوبة من عمره . . . أجل . . . كانت شخصية « الأفضل » هي التي تتصدر واجهة الأحداث ، ويبدو ان « المستعلي بالله » لم يكن له من الخلافة الا الاسم ، وأنه كان محظوراً عليه ممارسة أي نشاط ، وهناك مصادر تاريخية تثبت أنه كان يشكو من مرض عضال اختطفه وهو في ريعان العمر . بينما مصادر أخرى تقول انه مات مسموماً .

ومهما يكن من أمر فإن أوضاع الدولة الفاطمية بعد الخليفة « المستنصر بالله » أصبحت غير طبيعية ، فالشرعية لم يعد لها وجود ، والدعوة الدينية التي كانت تساند الدولة وتدعم وجودها انقسمت على نفسها وأخذت تمارس الحرب الفعليّة

بين فريقين ولم ينتهي النزاع إلاّ بعد زوال الدولة ، وتحويل المجموعة التي كانت تعتبر دعائم لها إلى مؤسسات دينية انتشرت في جميع الأقطار الإسلامية ، فكانت تعلو وتهبط دون أن يكون لها أي نشاط سياسي ، أو تفكير بالتخطيط إلى بناء دولة أو إرجاع ما كان إلى سابق عهده .



دار الافضل

عندما وزر « بدر الجمالي » للخليفة « المستنصر بالله » بنى داراً في حارة « برجوان » وقد عرفت فيما بعد بدار « المظفّر » ويذكر بعض المؤرخين أنها هي الّتي عرفت بدار الوزارة ، ولكن من المرجح أنها الدار الّتي صارت فيما بعد مقراً للوزراء ، وهي بالتأكيد الّتي بناها « الأفضل » شمالي القصر الكبير الشرقي ، ويفصل بينهما رحبة باب « العيد » الّتي عرفت بدار « القباب » وفي الغالب فإن « الأفضل » اتخذها دارسكن فقط ، ولم يحول اليها الدواوين من القصر إلى أن بنى دار الملك على ساحل مصر فنقل إليها الدواوين من القصر ، يؤيد ذلك ما ذكره التاريخ عنها :

« وهي من إنشاء « الأفضل » بن أمير الجيوش ابتدأ في بنائها وإنشائها سنة٥٠١هـ . فلمّا كملت تحوّل إليها من دار « القباب » بالقاهرة وسكنها وحول إليها الدواوين من القصر فصارت بها وجعل فيها الأسمطة واتخذ بها مجلساً سمّاه

« مجلس العطايا » كان يجلس فيه » . أما دار « القباب » فقد أصبحت سكناً لأولاده ، ويزيد التاريخ على قوله :

« بأن الأفضل » سنة ٥٠١هـ ازدادت كراهيته لأولاده فاحتجب عنهم في أكثر الأوقات ، ولهذا انقطعوا عنه ، واستقروا بالقاهرة في دار « القباب » التي كانت سكن أبيهم « الأفضل » وهي التي عرفت بدار الوزارة ».

إذن « فالأفضل » اتخذ من دار الملك مقراً للحكم وترك دار « القباب » لسكنى أولاده ، وظلّ الحال على ذلك حتى قتل « الأفضل » فنقلت الدواوين مرة أخرى من دار الملك إلى القصر ، وظلّت الى حين صادر الخليفة العاشر « الآمر بأحكام الله » بيوت « الأفضل » .

أمّا متى صارت دار « القباب » داراً للوزراء ؟ فنرجح أن ذلك حدث في وزارة « أحمد بن الأفضل » الملقب « بكتيفات » فإنه عندما أصبح وزيراً « للحافظ » سنة ٥٢٥هـ استبد بالحكم ، وسجن الخليفة ، واستعاد أملاك أبيه التي صادرها « الآمر بأحكام الله » ومن بينها دار « القباب » ومن المرجح أنه انتقل للسكن بها ونقل إليها الدواوين ؛ ومن ثم ظلّت دار « القباب » مركزاً للحكم ومقراً للوزراء . ثم سكنها « صلاح الدين » إلى

أن انتقل منها الملك « الكامل محمد » واستقر بالقلعة ، فتحولت إلى دار ضيافة لمن يرد من الملوك ورسل الخليفة . ويصف التاريخ دار الوزارة :

بأنها كانت محاطة بسور مبني بالحجارة وقد بقي جزء منه مدة طويلة ، وكانت الدار تشتمل على عدة قاعات ومساكن وبستان وكان فيها مائة وعشرون مقسماً للماء الذي يجري في بركها ومطابخها ، كما كانت تنقسم إلى قسمين رئيسيين احدهما : دار الحرم والآخر دار السلام الذي كان مخصصاً لشؤون الحكم ، وكان في إحدى قاعات هذه الدار المقعد الكبير الذي أرسله « البساسيري » من بغداد وهو كرسي الخلافة العباسية ، وكان « الأفضل » يجلس عليه ، وظل المقعد بالدار حتى عمّر « الأمير ركن الدين بيبرس » الخانقاه الركنية ، وأخذ من دار الوزارة أنقاضاً منها ومن جملتها « المقعد العباسي » الذي جعله في القبة التي دفن تحتها .

المصير المحتوم

ذكرنا في الصفحات الأولى من هذا الجزء بأن « الأفضل » مات مقتولاً بأيدي « النزارية » وذكرنا بأن « المستعلي بالله » الخليفة الفاطمي الذي أقامه « الأفضل » عنوةً بفعل قرابته منه قد مات في سن مبكر ، فكان على « الأفضل » أن يقيم ولده « الآمر بأحكام الله » مكانه وكان له من العمر خمسة أعوام ونيف ، ولكن بعد أن كبر « الآمر » قتل « الأفضل » كما ذكرنا ثم قُتل « الخليفة الآمر » أيضاً وهنا تصدّى للحكم « الحافظ » وهو من أعمام « الآمر » متخذاً لنفسه صفة النيابة أو ما يسمّى الكفالة لطفل « منتظر » أطلقوا عليه اسم « الطيّب » فهذا الطفل سيكون الخليفة . . . وفي هذه الفترة استولى « أحمد بن الأفضل الجمالي » على الوزارة بقوة السلاح وبمؤازرة الجيش فقبض على « الحافظ » وسجنه ، ثم أخذ يفتش على « الحمل » المنتظر من نسل « الآمر » ليقتله ولكنه

لم يعثر له على أثر ، ومن المشهور عنه أنه ألغى الشعائر الدينية الفاطمية ، وأسقط اسم الخليفة الفاطمي من الخطبة ودعا لإمام منتظر . وقد اشتد ضرره على أهل القصر وأزعجهم وفتش طويلاً على ابن « الآمر » المزعوم ولكنه لم يجده ، وأخيراً قتل سنة ٥٢٦هـ. أي بعد حكم استمر سنة ونيف ، وعاد « الحافظ » بعد أن خرج من سجنه ليقوم بدور الكفيل «للخليفة المنتظر » ولكنه لم يرض بهذه المهمة فاستطاع أخيراً أن يكسب مبايعة رجال الدولة له بأنه الخليفة الأصيل ، وهنا يحدث انشقاق آخر في الفرقة « المستعلية » فكانت فرقة ترى صحة خلافة « الحافظ » وتعرف « بالحافظية » وفرقة ترى أن « الحافظ » لا ينحدر من أسرة الخلفاء الفاطميين ، وأنه اغتصب الخلافة اغتصاباً وهذه الفرقة تسمّى « بالطيّبية » وكان من نتيجة ذلك أن خرجت بلاد اليمن عن طاعة مصر وذلك في عهد الملكة الحرة الصليحية « أروى » ولم يبقَ إلاّ بعض الرجال الذين كانوا يعيشون في دنيا الأساطير وعالم الأحلام ينتظرون عودة « الطيّب » الذي لم يولد .

« مآثر الأفضل »

مات « بدر الجمالي » تاركاً لولده « الأفضل » دولة مستقرة هادئة ناعمة البال ، فسار على نهج أبيه وسيطر على الدولة سيطرة تامة ، واستطاع في فترة حكمه الطويل أن ينشر الأمن والرخاء في طول البلاد المصرية وعرضها دون الأقطار الأخرى التي خرجت وانفصلت عن الدولة الفاطمية ، ومما سجله التاريخ « للأفضل » على صفحاته بأحرف بارزة اهتمامه بعمارة الأرض وتحسينها . . . فقد ذكر :

إنه أمر سنة ٥٠١هـ. بحل جميع الاقطاعات عندما شكا اصحاب الاقطاعات الصغيرة من الأجناد من قلة دخل اقطاعاتهم بالنسبة لاقطاعات الامراء ، ثم أنه أجرى مساحة عامة في البلاد وأعاد توزيع الاقطاعات على المتزايدين من الأجناد والأمراء ، وفي ذلك يقول المؤرخ المقريزي :

« إن المأمون وهو رئيس ديوان الخراج عندما رأى من اختلال أحوال الرجال العسكرية والمقطعين وتضررهم من كون اقطاعاتهم قد خسَّ ارتفاعها وساءت أحوالهم لقلة المتحصل ، وإن اقطاعات الأمراء قد تضاعف ارتفاعها وازدادت عن غيرها ، وإن في كل ناحية الفواضل للديوان جملة تجيء بالعسف ، ويتردد الرسل من الديوان الشريف بسببها ... فخاطب « الأفضل » في أن يحل الاقطاعات جميعها ويردها كلها وعرفه أن المصلحة في ذلك تعود على المقطعين والديوان ، لأن الديوان يتحصل له من هذه الفواضل جملة يحصل بها بلاد مقررة . . . فأجاب إلى ذلك وحلّ جميع الاقطاعات ومسحها واختبر دخلها ، وأخذ كل من الأقوياء والمتميزين يتضررون ويذكرون لهم بساتين وأملاكاً ومعاصر في نواحيهم . . . فقال له كل من كان له ملك فهو باقٍ عليه لا يدخل في الاقطاع وهو مخيّر إن شاء باعه أو شاء أجّره ، فلمّا حلّت الاقطاعات أمر الضعفاء من الأجناد أن يتزايدوا فيها فوقعت الزيادة في اقطاعيات الأقوياء إلى أن انتهت إلى مبلغ معلوم ، وكتبت السجلات بأنها باقية في أيديهم إلى مدة ثلاثين سنة لا يقبل عليهم فيها زائد ، وأحضر الأقوياء وقال لهم : ما تكرهون من الاقطاعات التي كانت بيد الأجناد ؟ قالوا :

كثرة غيرها وقلة متحصلها وخرابها وقلة الساكن بها، فقال لهم ابذلوا في كل ناحية ما تحمله وتقوي رغبتكم فيه ، ولا تنظروا في العبرة الأولى ، فعند ذلك طابت نفوسهم وتزايدوا فيها إلى أن بلغت إلى الحد الذي رغب كل منهم فيه فأقطعوا به ، وكتب لهم السجلات على الحكم المتقدم ، فشملت المصلحة الفريقين وطابت نفوسهم ، وحصل للديوان بلاد مقررة بما كان مفرقاً في الاقطاعات بما مبلغه خمسون ألف دينار . . . وبذلك طابت نفوس الجميع وأقبلوا على زراعة الأرض ، ونلاحظ في هذه التدابير تطورات اقتصادية هامة أولها زيادة مدة الضمان من أربع سنوات إلى ثلاثين سنة وقد يكون الغرض من ذلك أن يكون للاستقرار الذي يشعر به المقطع ولديه هذه المدة الطويلة حافز على أن يولي كل عناية لاقطاعه . وثانيها أن أغلب المقطعين أصبحوا من الأمراء والأجناد والموظفين ذوي المرتبات الثابتة نظراً لقدرتهم على التزايد في حين أن أفراد الشعب والفلاحين لم يعودوا على ما يبدو قادرين على الدخول في هذه المزايدات ، وذلك لما تعرضوا له من هزات اقتصادية أثناء الشدة العظمى في أواخر أيام « المستنصر بالله » وثالث هذه التطورات أن إعطاء الاقطاعات الفقيرة التي كانت في يد الأجناد للأمراء القادرين من عوامل إصلاحها لما لدى

أصحابها الجدد من القدرة المادية على الإصلاح ، كما نلاحظ أيضاً أن الأملاك الخاصة للمقطعين في اقطاعاتهم القديمة لم تمس بل ترك لكل واحد منهم الحرية في التصرف كما يشاء .

ولمّا بلغ « الأفضل » أن بعض أصحاب الأملاك بالصعيد الأعلى قد استضافوا إلى أماكنهم من أملاك الدواوين أراض اغتصبوها ومواضع مجاورة لأملاكهم تعدوا عليها وخلطوها بها أمر بإصدار منشور بإقرار جميع الأملاك والأراضي والسواقي بأيدي أربابها الآن من غير انتزاع شيء منها ولا ارتجاعه وأن يقرر عليها من الخراج ما يجب تقريره ويشهد على أمثالهم بمثله إحساناً إليهم . . . وقد انعمنا وتجاوزنا عمّا سلف ونهينا من يستأنف وسامحنا من خرج عن التعدي إلى المألوف وجرينا على سننا في العفو والمعروف وجعلناها توبة مقبولة من الجماعة الجانين ومن عاد من الكافة أجمعين فلينتقم الله منه وطولب بمستأنفه وأمسه وبرئت الذمة من ماله ونفسه وتضاعفت عليه الغرامة والعقوبة ، وقد فسحنا مع ذلك لكل من يرغب في عمارة أرض حلفاء دائرة وإدارة مهجورة معطلة في أن يسلم إليه ذلك ويقاس عليه ولا يؤخذ منه خراج إلاّ في السنة الرابعة من تسليمه إياه ، وأن يكون المقرر على كل فدان ما توجبه زراعته لمثله خراجاً مؤبداً وأمراً مؤكداً .

فالأفضل عندما علم بأن بعض الملاّك قد اغتصبوا أملاكاً من أملاك الدولة وضموها إلى أملاكهم أمر بإقرار هذه الأراضي بأيدي واضعي اليد عليها مع تقرير الخراج الواجب عليها كما أمر بمعاقبة من يلجأ بعد ذلك إلى مثل هذا العمل ، إلاّ أنه تشجيعاً لاستصلاح الأراضي البور وزراعة الأراضي المهملة أمر بأن يعفى كل مستصلح لأرض من الخراج الواجب عليها ولمدة ثلاث سنوات ، ويؤخذ في السنة الرابعة . . .

ويقول التاريخ :

إنه لمّا سرت هذه المصالح إلى جميع أهل هذه الأعمال حصل الاجتهاد في تحصيل مال الديوان وعمارة البلاد .

إلى جانب ذلك وجّه « الأفضل » عنايته للري . . . ففي عهده جدّد حفر خليج أمير المؤمنين سنة ٥٠٢ هـ . وجعل حفره بأبقار البساتين التي عليه وأقام عليه والياً بمفرده ومنع الناس من أن يطرحوا فيه شيئاً ، كما أمر بحفر الخليج الذي عرف بخليج « أبي المنجا » وكان « الأفضل » قد حفره بناء على نصيحة « أبي المنجا بن شعيا » اليهودي الذي كان مشرفاً على البلاد الشرقية التابعة لديوان الخلافة ، وذلك لأن الماء لم يكن يصل لهذه الجهات إلاّ من خليج « السردوس » وغيره من الأماكن البعيدة ، وابتدأ الحفر سنة ٥٠٦ هـ. وتمّ في عامين ،

ويقال أن « الأفضل » ركب في النيل مع حاشيته بعد أن رمى فيه حزمة من « البوص » وأخذ يتتبعها حتّى رماها الماء في المكان الذي ابتدأ الحفر منه ، وكان هذا الخليج سبباً في ازدهار هذه البلاد التي يرويها ، وقد غلب على الخليج اسم « أبي المنجا » برغم محاولة « الأفضل » تسميته باسمه .

وبلغ التقدم الزراعي في عهده أن عمّرت الأرض كلها حتّى أن « الأفضل » استجلب « اردبين » من نوع جديد من القمح وأراد تجربتها في الزراعة ، فأرسل أحدهما إلى والي « الصعيد » والآخر إلى والي « الدلتا » ، فجاءه جواب أحدهما أن الأرض كلها مزروعة وليس هناك مكان لبذر هذا القمح ، في حين ذكر الثاني أنه بذر الأردب ، فعرف اهتمام الأول بالزراعة حيث لم يجد مكاناً غير مزروع يمكن زراعة هذا القمح فيه ، في حين أهمل الثاني حتّى بقيت هناك أرض معطلة زرع فيه هذا الأردب ، وكان أن كافأ الأول وعاقب الثاني .

واهتمّ « الأفضل » اهتماماً بالغاً بالحالة الاقتصادية وخاصة الزراعة ، فما أن علم إن ضامن أي أرض لا يأمن أن يزيد عليه آخر فتنزع منه قبل انقضاء مدة ضمانه ، حتّى أبطل ذلك وأقرّ كل ضامن على أرضه إلى أن تنتهي مدة ضمانه ما دام منفذاً لتعهداته .

وأصدر لذلك منشوراً جاء فيه ما نصه :

« بأنه أي واحد من الناس ضمن ضماناً من باب أو ربع أو بستان أو ناحية ، أو كفر وكان لأقساط ضمانه مؤدياً ولما يلزمه من ذلك مبدياً وللحق متبعاً فإن ضمانه باقٍ في يده لا تقبل زيادة عليه مدة ضمانه على العقد المعقود عملاً بالواجب والنظام المحمود . فأمّا من ضمن ضماناً ولم يقم بما يجب عليه فيه وأصرّ على المدافعة والمغالطة التي لا يعتمدها إلاّ كل سفيه سيء الطباع ، فذلك الذي فسخ حكم ضمانه بنقضه الشروط المشروطة عليه . . . »

ولقد كان الضمّان يعجزون عن دفع مبلغ ضمانهم جميعه، فيبقى عليهم مبالغ عرفت بالبواقي ، وكانت الحكومة تشتد أحياناً في تحصيل هذه البواقي ، وقد تتسامح في أحيان أخرى تخفيفاً عنهم ، وذلك ما اتخذه المأمون إذ أصدر أمره بإعفاء الضمّان من دفع ما عليهم من متأخرات . . . ولا شك أن المسامحة بهذه المبالغ الطائلة دليل على أن خزانة الدولة أصبحت عامرة حتى أمكن التخفيف عن أصحاب الضمانات .

ولمّا وجد المسؤولون إن بعض الناس قد اجتازوا أرضاً بالإصلاح أو غيره دون أن يدفعوا عنها خراجاً لمدد طويلة ، فلمّا قدر عليهم الخراج عن هذه السنين وجد أنه يستنفد ثروتهم

فأعفاهم من خراج السنين السابقة وتشجيعاً منه لإصلاح الأراضي البور أعفى كل مستصلح لأرض منها من دفع خراجها لمدة أربع سنوات .

كما أعفى سكان مصر والقاهرة ممن يستأجرون مساكن أو حوانيت أو حمامات وغيرها من أملاك الحكومة بأجرة شهر رمضان من كل سنة تخفيفاً عنهم وإكراماً للشهر المبارك.

ويصف المؤرخون « الأفضل » بالعدل وحسن السيرة في الرعية والتجار ، فلم يعرف أن أحداً صودر في زمانه أو قسط عليه . . . ولما حضر الاسكندرية كان بها يهودي يبالغ في سب « الأفضل » وشتمه ولعنه ، فقبض عليه وأراد قتله ، وعندما عدّد عليه ذنوبه . . . قال له : أنّ معي خمسة آلاف دينار خذها مني واعتقني وأعف عني فقال : والله لولا خشية أن يقال قتله حتى يأخذ ماله لقتلتك ، وهكذا عفا عنه ولم يأخذ منه شيئاً .

مخلفات آل الجمالي

ذكر التاريخ :

إن « بدر الجمالي » جمع ثروة طائلة في ظروف لم تكن قد برئت تماماً مما أصابها من محن ، وقد خمّن هؤلاء ثروة « بدر الجمالي » بالملايين وللدلالة على ذلك ذكروا أنّ أحد كتّابه اشترى « سمكة » من عنبر بألف دينار حرقها في النار في جلسة واحدة . . . كما أن الشاعر « علقمة بن عبد الرزاق العليمي » مدح بدراً فخلع عليه من كانوا عنده من أصحاب « بدر » ما بلغ مقداره سبعين حملاً ، وأجازه « بدر » من ماله بعشرة آلاف . وذكر : أن احتياج « بدر » من السكر كان مائة قنطار بالرطل الشامي ، وقد كان مشغوفاً باقتناء الجواهر الثمينة ، وخلّف من المال بعد عمارة سور القاهرة ستة آلاف ألف دينار وأربعمائة الف ألف درهم في دار الوزارة ، ومن الجواهر والياقوت أربعة صناديف . ومن القصب والفضة

والذهب والمراكب يعني السروج المحلاّة ما يعجز عن وصفه، وخلّف ألف قصبة زمرد لأنه كان له به غرام عظيم جمعت من مختلف الأقطار .

وأطنبت المراجع التاريخية في ذكر الثروة التي خلّفها «الأفضل بن بدر الجمالي» حتى أن الخليفة الفاطمي العاشر «الآمر بأحكام الله» ظل أربعين يوماً في دور «الأفضل» وبين يديه الكتاب يكتبون ما ينقل إلى القصر منها . . . ومن الغريب أن يستطيع «الأفضل» جمع هذه الثروة الضخمة في وقت كانت فيه البلاد تعاني ويلات الحروب الصليبية وضياع معظم ممتلكاتها .

فقد وجد له ستة ملايين ومائتان وخمسون ألف دينار وخمسون أردباً دراهم ورق . . . ووجد في حجرة نومه قمطران عليهما حلية الذهب ومملوآن جواهر ما بين عقود مفصّلة بياقوت وزمرد وسبح ، وقطمر فيه إحدى عشرة شرابة طول كل واحدة منها شبران بجواهر ما يقع عليها قيمة، وصناديق فضة مملوءة مصاغات ما بين عصائب وتيجان ذهب مرصعة بجواهر نفيسة ، وثلاثون راحلة احقاق من الذهب العراقي ودواة ذهب قوم ما فيها من جوهر باثني عشر ألف دينار ومائة مسمار من ذهب وزن كل مسمار منها مائة دينار

في عشرة مجالس ، في كل مجلس عشرة مسامير على كل مسمار منديل مذهّب لون من الألوان أيّما أحب منها لبس ، وخمسمائة صندوق كسوة لخاصته من دبق تينسي ، وصندوقان كبيران فيهما ابر ذهب مصاغة برسم الجواري والنساء ، وخلّف من الرقيق والخيل والبغال والمراكب من الطيب والتجمل والحلي الشيء الكثير ، وخلّف من البقر والجواميس والغنم ما بلغ ألبانها في سنة وفاته بثلاثين ألف دينار .

وترك تسعمائة ثوب من الديباج الملوّن ، وتسعين ألف ثوب عتّابي ، وثلاث خزائن كبيرة ممتلئة بالثياب الدبيقيّة من صنع تنيس ودمياط ، كما ترك أربع حجرات ملأى بالمقاطع والستور والفرش والوسائد والمساند والديباج ، وخزائن أخرى مملوءة بالثياب المصنوعة من الديباج والمحلاّة بالذهب إلى غير ذلك من الستور والطنافس والأبسطة التي وجد منها أربعة آلاف ، كما خلّف خمسمائة قطعة بلور وألف عدل من متاع اليمن والاسكندرية والغرب وسبعة آلاف مركب أي « سرج » .

أمّا ما وجد له من الذهب والأحجار الكريمة فشيء لا يوصف ، وقد ذكر التاريخ :

إنه ترك سبعمائة طبق ما بين فضة وذهب ، وما لا يحصى

من الصحاف وأكواب الشراب والأباريق والقدور وأواني اللبن وغيرها ، وكلها من الذهب والفضة كما كان هناك كثير من الأواني الصيني مملوءة بالجواهر الذي كان بعضه على هيئة عقود والبعض الآخر منثوراً ، وكان « الأفضل » حين يجلس للشراب يجعل في مجلسه صواني الذهب وعليها الأواني المملوءة بالجواهر . . . فعند الشراب تفرغ الأواني في الصينيّة فتملأها ويجعل بدله الشراب .

وكان « الأفضل » مغرماً بأنواع الطيوب من المسك والعنبر ، وكانت له خزانة للطيب مملوءة بأسفاط العود وغيره مكتوب على كل منها وزنه ونوعه ، ووجد من أواني المسك والكافور والعنبر ما لا يمكن عده . وكان من ذخائره دكة عاج وأبنوس محلاّة بالفضة عليها قطعة من العنبر مثمنة الشكل تزن ألف رطل في أعلاها تمثال طائر من ذهب أرجله من المرجان ومنقاره من الزمرد وعيناه ياقوتتان ، كان ينصبها في بيته فيضوع عرفها ويعم القصر ، وصارت إلى صلاح الدين ، وكان يضع ملابسه على تمثال من العنبر حتّى تكتسب رائحة .

وفي مجلس شرابه وضعت ثمانية تماثيل لثمان جوارٍ متقابلات ، أربع منهنّ بيض من كافور ، وأربع سود من عنبر عليهنّ أفخر الثياب وأثمن الحلي وبأيديهن أحسن الجواهر ،

وكان « الأفضل » إذا دخل المجلس ووطىء العتبة نكّسن رؤوسهنّ إجلالاً له ، فإذا أخذ مكانه استوين قائمات .

وكان في بيت « الأفضل » ثمانمائة جارية ... منهن خمسون حظية ، لكل واحدة منهن حجرة تخصها وخزائن مملوءة بالكسوة وآلات الديباج والذهب . كما كان بدار الملك مجلس يعرف بمجلس العطاء يجلس فيه « الأفضل » لتصريف الأمور وكان به ستة ظروف من الديباج الأطلس من كل لون اثنان في كل منهما خمسة آلاف دينار ، ووضع في قاعة « اللؤلؤ » وفي دار الحرم ظرفان آخران في أحدهما خمسة آلاف دينار وفي الثاني دراهم ... وكان « الأفضل » يتصدق منها .

الحياة الفكرية

أخذت الحركة الفكرية — شأنها شأن أي شيء آخر في الدولة في الضعف والانهيـــار نتيجة للحالة الغير طبيعية التي تعرضت لها الدولة الفاطمية بعد وفاة الخليفة « المستنصر بالله » فكانت الأحداث والفتن والاضطرابات التي تعرضت لها البلد في الداخل والخارج ، وانسلاخ الأقطار عن جسم الدولة عاملاً في إهمال الحركة الفكرية التي كثيراً ما تصاب بالشلل عندما لا تجد الأمن والاستقرار والسلام فقد ذكر أن مكتبة القصر التي كانت أعظم مكتبة في ذلك الوقت قد تعرضت للسرقة والتخريب والعبث ، وذكر التاريخ :

إن الوزير «محمد بن جعفر المغربي » أخذ من مكتبة القصر حمولة خمسة وعشرين جملاً موقرة وفاءً لما يستحقه .

ولمّا أعاد « بدر الجمالي » الاستقرار للبلاد . . . عاد للحياة العلمية والفكرية بعض ازدهارها وقوتها . . . واستمرت

على هذه الحال حتّى نهاية الدولة . ففي تلك الفترة بدأت مصر تجذب إليها من جديد العلماء والمفكرين والأدباء ، وأخذ العلماء يتجهون بمؤلفاتهم ، والشعراء بأشعارهم إلى الوزراء الذين أصبحوا أصحاب السلطة الحقيقية والقوة المسيطرة .

فقد بدأت الأنظار تتجه إلى رؤية بعض الأعلام أمثال : « محمد بن بركات النحوي المصري » . . . تلميذ « القضاعي » وقد تناول موضوع الخطط من بعده في كتابه « خطط مصر » ، كما ألّف في علوم اللغة كتاباً وضعه « للأفضل » هو : « كتاب الإيجاز في معرفة ما في القرآن من ناسخ ومنسوخ » وله تصانيف في النحو حتى وصفوه بأنه بحر العلوم .

وهنالك « علي بن جعفر بن علي السعدي » المعروف « بابن القطاع » الذي رحل عن صقلية سنة ٥٠٠هـ. عندما أوشكت على الوقوع في أيدي الفرنجة ، وعندما جاء إلى مصر وجد الرعاية من « الأفضل » وجعله مؤدباً لولده ، وقد ألّف العديد من الكتب .

وفي تلك الفترة انتقل الشعراء من مدح الخلفاء إلى مدح الوزراء ، حتّى أن من يتعرض منهم لمدح كان عليه أن يقرن معه اسم الوزير وإلاّ حلّت عليه نقمة الوزير وسخطه ،

والويل للشاعر الذي يتجه بمدائحه إلى غير الوزراء إذ أنه بذلك يتعرض للإهمال مهما بلغ شعره من الجودة . وعلى سبيل المثال نذكر الشاعر « إسماعيل بن محمد » المعروف « بابن مكنسة » الذي وصفه « أمية بن أبي الصلت » بأنه « شاعر كثير التصوف ، قليل التكلف مفتن في وشي جاء القريض وهزله ، وضارب بسهم في رفيعه وجزله » .

هذا الشاعر برغم تفوقه لم ينل الحظوة لدى « الأفضل » وحكم عليه بالموت الأدبي ، لأنه كان منقطعاً قبل ذلك إلى مدح « عامل من النصارى » يعرف « بأبي مليح » فنقم عليه « الأفضل » وأعرض عنه حتى ساءت حاله .

ومهما يكن من أمر فهؤلاء الوزراء كانوا يتذوقون الشعر ويحبون الأدب ، بل كان منهم من يقرض الشعر ، وكانوا يكرمون رجال الأدب لا حباً في التظاهر بل حباً في الأدب نفسه ، ولذلك وفد على مصر كثير من أعلام الأدب وقد وجدوا من وزرائها الرعاية والتقدير ، فكان لذلك أثره في ازدهار الحركة الأدبية من جديد ، فامتازت هذه الفترة بروعة الشعر وبراعة النثر وحفلت دواوينهم بأئمة البيان الذين بلغوا الدرجة العالية من الثقافة وعرفوا بالمهارة في فنون الأدب حتى أصبحت رسائلهم وكتبهم مثالاً يحتذى أمثال « أبي الفتح

الدمياطي » و « ابن الخلال » و « ابن الصيرفي » و « القاضي الفاضل » فظلّت النهضة الأدبية في ازدهارها ، وأصبح لمصر في عهد هؤلاء الوزراء الزعامة الأدبية في العالم العربي ، فالدولة الفاطمية وإن ضعف خلفاؤها ظلّت إلى حد ما متماسكة بفضل بعض الوزراء الأقوياء الذين استطاعوا أن يحافظوا على البلاد وأن ينمّوا ثروتها التي جذبت العلماء والشعراء والكتّاب والفنانين من البلاد الأخرى في حين انتاب الضعف الخلافة العباسية وانقسمت إلى دويلات صغيرة فقيرة فأصبحت مصر قبلة كل من يسعى إلى الثروة وبحبوحة العيش ، بل لقد شجع جود الوزراء وعطاياهم كثيراً من الشعراء إلى إرسال مدائحهم وهم في بلادهم . . . وكانت هبات الوزراء بالتالي ترسل لهم في أماكنهم دون تحمل مشقة الحضور إلى مصر ، وكأن الوزراء بذلك قد شجعوا الحركة الأدبية في مختلف البلاد العربية لا في مصر فحسب .

وكان « بدر الجمالي » برغم انشغاله بالقضاء على أسباب الفتنة وترسيخ أقدام الدولة ، وإشاعة الأمن والاستقرار والازدهار لا يرد الشعراء من على بابه ، كما كان جواداً يسمع المديح ، ويثيب عليه . . . وقصة الشاعر الشامي « علقمة ابن عبد الرزاق العليمي » مع « بدر » معروفة وقد ذكرناها ...

ولكن ذلك لم يمنع بدراً من قتل بعض الشعراء المجيدين أمثال : « ابن أبي الشخباء » و « علي بن إسماعيل » الذي وصفه عماد الدين بقوله :

« لم يكن له نظير في الأدب سوى : « ابن أبي الشخباء » .

وكان « الأفضل » الجمالي معروفاً بحبه للشعر وللشعراء وكان له مجلس في دار الملك كما ذكرنا مخصصاً للشعراء حيث ينشدونه قصائدهم وينعمون بما يغدقه عليهم من صلات . . . ويشبه الشاعر « ابن العلافي » هؤلاء الوفود بالحجيج :

فمكـــة مصر والحجيج وفوده
ويمناه ركن البيت والنيل زمزم
وشاكر ما تولى مقرّ بعجزه
ولو انـــه في كلّ عضو له فم

ولقد ظهر منذ عهد « الأفضل » غرض جديد من أغراض الشعر علاوة على ما كان معروفاً من قبل كالمدح والرثاء والوصف . . . وذلك هو الشعر الذي يتعلق بالحروب الصليبية ، فقد أخذ شعراء تلك الفترة يذكرون جهاد الوزراء وحروبهم مع هؤلاء الدخلاء ، وانتصارهم عليهم ومحاولة تبرير مواقفهم . . . ومن ذلك قول أمية ابن أبي الصلت في قصيدة يذكر فيها خروج الأفضل لحرب الصليبيين .

قال :

جرّدت للدين والأسياف مغمدة
سيفاً تغلّ به الأحداث والغيرُ
وقمت إذ قعد الأملاك كلهم
تذبّ عنـــه وتحميه وتنتصرُ

جاء الشاعر « أمية » من بلاد المغرب يجذبه إلى مصر جود « الأفضل » ويبدو أنه نال حظوة لديه في أول الأمر ، ثم غضب عليه وسجنه واضطرّ أمية إلى الرحيل سنة ٥٠٦هـ. بعد أن يئس من استعادة مكانته لدى الوزير ، فألّف الرسالة المصريّة التي هاجم فيها مصر والمصريين ووصف ما لقيه فيها وما شاهده إلاّ أنه ذكر كثيراً من أدباء مصر وشعرائها الذين عرفهم مثل « علي بن جعفر بن البوين » من « معرة النعمان » ، ويذكر « أمية » أن « الأفضل » لم يقبل على أحد من الشعراء كإقباله على « علي » هذا فإنه أفاض عليه سحائب إحسانه ودرّ عليه أنعامه ولقبه بأمين الملك وأدناه واستخلصه . و « لابن البوين » في « الأفضل » أشعار كثيرة ومنها :

يا من تنافس فيه السمع والبصرُ
كما تغاير فيه الشمس والقمرُ

ومن تحكّم في الأرواح فاحتكمت
ألا يحكم فيهـــا بعده بشرُ

وممن ذكرهم « أمية » أيضاً علي بن جعفر بن الأغلب السعدي » الذي وفد إلى مصر من جزيرة « صقلية » وكان من أئمة الأدب في عصره ، وله تصانيف كثيرة منها كتاب « الدرة الخطيرة في المختار من شعر شعراء الجزيرة » . « صقلية » وكتاب « لمح الملَح » ويتضمن الكثير من أشعار الأندلس .

ومن الشعراء الذين نعموا بجود « الأفضل » « مفضل بن حسن العسقلاني » وله فيه شعر جيد كقوله :

أقول والنجمُ مرقوم بغرته
سطراً نظرت وضوء الصبح مبتسمُ
أماء خديه أضحى في زجاجته
يدير أم ملؤها في وجنتيه دمُ
صيغ الصباح ضياء من مياسمه
فاستنبطت حلكاً في شعره العتمُ

و « علي بن إبراهيم » الملقب « بابن العلاني » و « جعفر ابن الفضل » الملقب « بالمهذب » و « حسن بن الزبد الأنصاري

الذي كان من المقدمين في ديوان الإنشاء والذي يقول عنه «القاضي الفاضل» :

«إنه في فنه لم يسمع الدهر بمثله» . و «لابن الزيد» في الأفضل قصائد عديدة منها :

خلع الزمان عليَّ حلة مفخرٍ
شرفاً بمدح الأفضل المفضالِ
يلقى المدائح بالمنـــائحِ واهباً
ويصدق الأقوال بـــالأفعالِ

ومن قوله :

لولا وجودك في الزمان وجودك الـ
محيي المكارم بعـــد بُعد وفاتها
لم يعرف المعروف في الدنيا ولو
طلبنـــا عليه في جميع جهاتها

ومن الشعراء الذين مدحوا «الأفضل» مسعود الدولة النحوي ، والشريف «محمد بن هبة الله الحسيني» الذي جاء من طرابلس وحظي من منن «الأفضل» بأجزلها ، وغيرهم كثيرون أمثال «الدجرجاوي» و «الناجي» المصري و «علي

«ابن النضر الأديب» الذي يثني عليه «أمية بن أبي الصلت» بقوله:

«ذو الأدب الجم والعلم الواسع والفضل البارع وله من سائر أجزاء الحكمة اليد الطولى والرتبة الأولى».

على أن الشاعر المصري الذي ازدان به عصر «الأفضل» هو «ظافر الحدّاد» الذي أكثر من مدح «الأفضل» والخليفة ويصفه «العماد» بقوله:

«ظافر بحظه من الفضل ظافر، يدل نظمه على أن لديه الأدب الوافر، وشعره بوجه الرقة والسلاسة سافر، وما أكمله لولا أنه مداح المصري والله له غافر، «حداد» لو أنصف يسمّى جوهرياً، وكان أهدى يروي شعره الروي للقلوب الصاوية ريّاً».

ولكن هناك من الشعراء من نقم على «الأفضل» فهجاه، ومن هؤلاء «الناجي» المصري الذي يعتبر من شيوخ الأدب في عصره فقد قال في «الأفضل»:

قل لابن بدر مقال من صدقه
لا تفرض بالوزارة الحلقة
إن كنت قد نلتها مراغمة
فهي على الكلب بعدكم صدقة

وبالإضافة إلى كل هذا فإن « الأفضل » كان شاعراً وله بعض الشعر الجيد ، فمن شعره في غلامه « تاج المعالي » :

أقضيبٌ يميس أم هو قد
أو شقيق يلوح أم هو خدُّ
أنا مثل الهلالِ سقماً عليه
وهو كالبدر حين وافاه سعدُ

وكان شديد الغيرة على نسائه ، ويروى أنه أمر بقتل جارية تطلعت إلى الطريق فلمّا جيء برأسها بين يديه قال :

نظرت إليها وهي تنظر ظلها
فنزهت نفسي عن شريك مقاربِ
أغار على أعطافها من ثيابها
حذاراً ومن مسك لها في الذوائبِ
ولي غيرة لو كان للبدر مثلها
لما كان يرضى باجتماع الكواكبِ

وكان « الأفضل » محباً لجمع الكتب ، حتى وجد لديه بعد قتله مكتبة بها خمسمائة ألف كتاب ، ويروى أن أحد وراقي العراق أراد شراء كتب « أفرأيم بن الزفان » الطبيب الإسرائيلي ، والذي يقال أنه كان يملك أكثر من عشرين ألف مجلد ، فأمر « الأفضل » بشرائها وأضافها لخزائنه . . .

وبعد سقوط الدولة الفاطمية همدت الحركة الفكرية ومات سوق الأدب ولعلّ خير وصف لذلك ما قاله عماد الدين الأصفهاني :

« انكسفت شمس الفضائل الزاهرة ، ورخص سعر الشعر ، وانخفض علم العلم ، وضاق فضاء الفضل ، واتسع جاه الجهل ، وانحلّ نظام أهل النظم ، وانتثر عقد ذوي النثر ، واستشعر الفاقة الشعراء ، وعدم البلغة البلغاء ، وعد الفضل فضولاً ، والعقل عقولاً ، وطلب المهذب مذهباً في الذهاب محبوباً ، ومركباً في النحاة مجنوباً » .

نهاية الأفضل

ذكرنا أن « الإفضل » قتل ليلة عيد الفطر سنة ٥١٥هـ. وكان له من العمر سبع وخمسون سنة ، إذ أن مولده بعكا سنة ٤٥٨ هـ. وبعد موته قتل أولاده وأولاد أخيه « الأوحد » و « المظفّر » وكانوا نحو المائة ذكر ما بين كبير وصغير فقتلوا بأجمعهم ولم يبقَ منهم سوى صغير نحيف هو « أحمد » الذي أصبح وزيراً فيما بعد ثم قتل أخيراً .

وهكذا انتهت حياة هذه الأسرة الغريبة التي تسربت إلى حرم الدولة الفاطمية ، فتمكنت من السيطرة وبسط نفوذها ، وأخيراً تمكنت من القضاء على الدولة الكبرى بأن قسمتها إلى شطرين متنافسين كان كل شطر يعمل لتقويض أركان الشطر الآخر .

والحقيقة التي لا بد من قولها هي أن لا الدولة « المستعلية » ولا الإمارة « النزارية » استطاعت إعادة نفوذ الفاطميين

وسيطرتهم ودولتهم إلى سابق عهدها، فظلّ كل شيء في مكانه ضمن حدود لا يتعداها . . . وأخيراً تحوّلت الدولة الفاطمية بعد أن استولى عليها الأيوبيون إلى شراذم ودعوات سرية في اليمن وسورية والعراق وفارس دون أن تستطيع استعادة نفوذها السياسي في العالم الإسلامي ، واقتصر نشاط هذه الدعوات على الناحية الدينية فهي لم تتمكن من الوصول إلى مقاعد الحكم بالرغم من المحاولات الكثيرة التي كانت تكلفها العديد من الرجال والمقاتلين .

الدولة النزارية

ذكرنا في هذا العدد لمحة موجزة عن الداعي الكبير « الحسن بن الصبّاح » الذي يرجع إليه الفضل بإقامة قواعد الدولة « النزارية » في قلعة « ألموت » بفارس وذلك بعد حدوث الفتنة الكبرى في مصر بعيد وفاة الخليفة الفاطمي الثامن «المستنصر بالله » التي انتهت بمقتل ولي عهد الخلافة الفاطمية الشرعي « نزار » بن « المستنصر بالله » الأكبر ، وتنصيب « المستعلي بالله » بن « المستنصر بالله » الأصغر بقوة السلاح وبمساعي خاله « الأفضل بن بدر الجمالي » الوزير الأول وقائد القواد .

أمّا « الحسن بن الصبّاح » فقد ولد بالري سنة ٤٠٢هـ. وهو من أصل عربي ، ويقال أنه يتصل بملوك « حِميَر » اليمنيين .

تلقى الحسن علومه في جامعة « نيسابور » على الإمام العلاّمة « الموفق النيسابوري » وكان رفيقاه : الشاعر الفيلسوف

« عمر الخيّام » ، والوزير « نظام الملك » وبعد أن أتمّ دراسته قام برحلة في أنحاء إيران فالتقى بأحد دعاة الفاطميين المسمّى « أبو النظم » فتمكّن هذا الداعي من التأثير عليه وجذبه إلى عقيدته . . . وبعد مدة التقى بالداعي الفاطمي الأكبر « عبد الملك بن عطّاش » فبارك انتسابه وشجعه على زيارة القاهرة والتشرف بمقابلة خليفة مصر « المستنصر بالله » فقبل وتسلّم من ابن عطّاش كتاب توصية إلى الداعي « أبي داود المصري ».

في « القاهرة « المعزية » أقام « الحسن بن الصبّاح » ثمانية عشر شهراً في نهايتها تمكن من مقابلة الخليفة « المستنصر بالله » الذي منحه رتبة « داعي » وذكر أنه خلال هذه المدة كان يتلقّى الدروس الدينية على « المؤيد في الدين — هبة الله الشيرازي » داعي الدعاة » .

بعد ذلك غادر القاهرة إلى إيران ، ولم يمض عليه سوى فترة قصيرة حتى سمع بموت « المستنصر بالله » فعاد عندئذ إلى مصر وعندما وصل خاض غمار المعركة الكبرى الناشبة بين « نزار » و « الأفضل » فانتصر إلى نزار وأخذ يؤلب الناس على « الأفضل » ويدعو لمبايعة « نزار » وهذا أوغر صـــدر « الأفضل » عليه فاعتقله وزجّه في السجن ولكن الحسن بما عرف عنه من الدهاء والحيلة والمقدرة تمكن من

الهرب والعودة إلى إيران حيث أقام في منطقة « قزوين » يمهّد للدولة « النزارية » وكانت باكورة أعماله احتلال قلعة « ألموت » الواقعة في جبال « البرز » إلى الشمال الغربي من « قزوين » وكان « حسن الداعي للحق » قد بناها . . . ثم امتد « ابن الصبّاح » بعد ذلك إلى القلاع الأخرى المجاورة الواقعة في تلك الجبال وهي : « شاهدز » و « ليمون درّه » و « كردكوه » و « كمشير » و « ميمون دز » و « تون » و « خوان » وبعد أن تمّ له ذلك أعلن عن قيام الدولة النزارية وكان قد وصل إلى « ألموت » « الحسن – الهادي » ابن نزار ابن المستنصر بالله ، إماماً ، فبايعه الناس بالامامة ، وأخذت دولته الصغرى تنمو وتزدهر حتّى هابتها الدول المجاورة وأصبحت تحتل مكانة مرموقة بفضل التنظيمات الجديدة والأساليب الّتي اتبعهـــا « الحسن بن الصبّاح » والّتي تعتبر بنظر المراقبين جديدة ومتطورة .

اشتهر « حسن الصبّاح » بدهائه وعقليته التنظيمية وقد ذكره التاريخ بأكثر من مكان ووصفه بالشجاعة والإقدام فاليه يعود الفضل بتنظيم فرق « الفدائية » الّتي فرضت هيبتها على الدول المجاورة وخاصة في إبان الحروب الصليبية عندما انتقل نشاط هذه المؤسسة إلى بلاد الشام . كما يجب أن لا

نسى بأنها كانت العامل الأكبر بالتعجيل بذهاب الدولة الفاطمية « المستعلية » من الديار المصرية .

ذكر التاريخ :

إن « الحسن الصبّاح » ظلّ حاكماً على دولة « ألموت النزارية » مدة خمسة وثلاثين عاماً إلى جانب « الإمام الحسن الهادي بن نزار بن المستنصر بالله » الذي كان يقيم في قلعة « لامسَر » ، وبعد « الصبّاح » تسلّم شؤون الحكم والدولة « كيابزرك أميد » .

هذا بالنسبة لإقليم فارس ، أما في بلاد الشام التي آثرت اللحاق « بالنزارية » فبعد أن أصيبت الخلافة الفاطمية بالصميم بعد وفاة « الخليفة المستنصر بالله » واستيلاء اللاشرعية العاتية على مقدراتها فكان من الطبيعي أن يتعرض اتباع الدولة الفاطمية إلى هزّات عنيفة وضغط متواصل من قبل الأعداء خاصة من قبل الدولة « المستعلية » .

وقد نتج عن ذلك انقطاع الدعاة عن الوعظ والإرشاد وإصابة الدعوة الدينية بما يشبه الشلل ، ومن جهة أخرى فإن انتقال مركز « الإمامة » الفاطمية إلى « ألموت » ببلاد فارس ، وانشغال « الحسن بن الصبّاح » بتثبيت دعائم مملكته «النزارية»

ثم رد الغزوات المتعاقبة كل هذا وقف أمامه ومنعه من إمداد اتباعه السوريين بالمساعدات التي يتطلبها وضعهم .

وتوالت النكبات على « الإسماعيليين » في ديار الشام وفي حلب وحمص مما اضطرهم إلى الاعتصام بجبال « البهرة » وهي سلسلة الجبال المعروفة الآن بجبال العلويين ، فكانت رقعة دولتهم تمتد من شرقي مدينة طرطوس جنوباً حتى صهيون شمالاً ومن البحر غرباً حتى حدود حماه شرقاً ويدخل في نطاق هذه الرقعة قلاع : مصياف ، الرصافة ، القدموس ، العليقة ، المينقة ، المرقب ، الخوابي ، الكهف ، صهيون وغيرها .

وأخيراً قيّض الله لهؤلاء الجماعة شيخ الجبل « سنان راشد الدين » فنظم اتباعه وأقام إمارة ثانية جعل عاصمتها « مصياف » وقد كانت تعادل إمارة « ألموت » أو تفوقها ، وقيل انها انفصلت عنها في فترة من الفترات .

ولا بد لنا هنا من الإشادة بمآثر « سنان راشد الدين » واهتمامه بمحاربة الصليبيين الذين كانوا قد أخذوا يتسللون إلى المدن السورية الواقعة على شاطىء المتوسط ، وقصة « سنان » مع « صلاح الدين الأيوبي » معروفة في التاريخ ، فهي من القصص المثيرة التي تعطي انطباعاً جيداً وتظهر عظمة الرجال

وقيادتهم الحكيمة وإيمانهم بوطنهم وأمتهم .

أجل . . . كان « سنان راشد الدين » من الرجال القلائل الذين لا يجود بهم الدهر إلاّ حينما تعصف الأزمات وتتوالى النكبات .

تربّى في مدرسة الدعوة النزارية في « ألموت » وفي سنة ٥٥٨هـ. جاء إلى بلاد الشام ليقود اتباعه الإسماعيليين فظل شاغلاً هذا المركز حتّى وفاته في سن مبكرة أي سنة ٥٩٠هـ. ودفن في بلدة « مصياف » السورية .

كان له أثره البعيد في السياستين السورية والمصرية ، وكان حاملاً مسؤولية شعبه وحامياً له بنجاح من الضغوط الشديدة التي بدأها « صلاح الدين الأيوبي » والصليبيين ، والتي انتهت بتعاون « سنان » و « صلاح الدين » فيما بعد لمحاربة الصليبيين ، والقضاء على مخططاتهم وخاصة في معارك حطين والقدس حيث ساهم جيش سنان وفدائيته مساهمة فعّالة وابلوا البلاء الحسن في كشف مخططات الأعداء . ذكر التاريخ :

إنه كان قائداً عبقرياً وشجاعاً مقداماً وعلى جانب كبير من المعرفة والذكاء ومثلاً أعلى للفضيلة والأخلاق والوطنية ، وامتاز أيضاً بمعرفة الفلسفة والجبر وعلم الفلك والشعر والأدب.

جولة في ربوع التاريخ

لقد زعم التاريخ . . . ومزاعم التاريخ كثيرة لا تحصى . . . إن الفرقة « النزارية » الفاطمية كانت تؤلف في جميع العصور التي مضت خطراً محدقاً على الكيان الإسلامي ، وذلك لإيجادها الجمعيات السرية والمنظمات الإرهابية وابتداعها التعاليم الفلسفية « الباطنية » التي كانت تهدف إلى التعطيل والتخريب . . . ولعمر الحق أن هذه التهم التي درج عليها بعض المؤرخين « المستأجرين » لم تكن صحيحة ولم يدعمها الواقع ، وقد يكون من العسير على المنصف محاسبة المؤرخين والمستشرقين على ما ارتكبوه من أخطاء وتكذيب أقوالهم في فصولها وأبوابها . . . ولكن أحسن ما يقال في هذا الصدد هو أن الأمم الناهضة لا تخلق نهضة قومية أو فكرية إلاّ على ضوء الماضي ، والأمة الناشئة لا تقيم حاضرها إلاّ على عمد ماضيها ، وكم هو حري بنا ونحن نعيش في عصر نهضة جديدة ، وفي قرن الاكتشافات

والانتصارات العلمية أن نتجرد عن الأهواء وعصبية القرون ورواسب التاريخ ، فننصرف إلى إعادة النظر بما دوّن وكتب وإبراز الحقائق خالية من الأدران والشوائب خدمة للعلم وللأجيال من أمتنا الصاعدة .

أجل . . . لقد قام في دنيا العرب والإسلام علماء منصفون تفرغوا لدراسة هذه النواحي الحيوية الهامة ، وكشفوا الستار عن بعض الحقائق المغمورة . . . فمتى نرى لهؤلاء طلاباً في مجتمعنا يسيرون على غرارهم متخذين العقل دليلاً وهادياً متجردين للحقيقة وحدها عاملين على خدمة التاريخ ليأتي متفقاً والحقيقة وليتخذ صفة العلاج الشافي لمتاعب الإنسانية المعذبة ومنهاجاً للإصلاح الكامل . . . وعندئذ يرى الطالب في تاريخنا كل ما ينشده من حقائق .

لقد سبق لي أن ذكرت بأن « الدولة النزارية الفاطمية » سواء التي أقيمت في « ألموت — بفارس » بعهد « الحسن بن الصبّاح » أو التي بزغت في ديار الشام في بلدة « مصياف » بعهد « سنان راشد الدين » قد أدّت للأمة العربية وللبلاد الإسلامية أعظم الخدمات وأجلها ، فهذه المنظمة العسكرية « السرية » كانت مجموعة بأس وشجاعة وذكاء وقوة إرادة

خارقة ، وان الأعمال التي اضطلعت فيها كانت عاملاً أساسياً في صد العدوان الصليبي ، والوقوف بوجه الاستعمار وشبحه الرهيب مضافاً إلى ذلك وقوفها أمام المد التتري والتركي وغيرهما من العناصر الدخيلة المستعمرة .

ومهما يكن من أمر فإن أصعب فترة مرّت بها « الدولة النزارية » هي الفترة التي تبدأ بأوائل القرن الخامس للهجرة المعروفة لدى الباحثين والمؤرخين بعنفها وتقلباتها ، وبأنها الفترة الغامضة أو قل عنها فترة التجارب والمحن البعيدة عن الهدوء والاستقرار ، والزاخرة بالمفاجئات الغريبة والانقلابات العنيفة ، كهجمات الصليبيين على ديار الشام ، وظهور الدولة السلجوقية في فارس لمناوأة العباسيين في بغداد ، وقيام إمارة الأيوبيين « الأكراد » في مصر على أنقاض الدولة الفاطمية ، وظهور « الزنكيين » — « النوريين » في حلب ودمشق ، وبروز « النزارية » في فارس وسورية كدولة مرهوبة الجانب تعمل للقضاء على بقايا الدولة الفاطمية في مصر والمتمثلة « بالمستعلية » ، وقد كان من أثر هذا الواقع أن تتأثر « النزارية » في بلاد الشام بهذه الأحداث الخطيرة وأن تتعرض للأزمات والهزات .

فبعد أن تمّ إقامة الدولة « النزارية » في « ألموت — بفارس »

على يد « الحسن بن الصبّاح » بدأت ولادة دولة جديدة « نزارية » في ديار الشام تقلّب على قيادتها الداعي « رضوان » و « بهرام بن موسى » ، و « محمد العراقي » وهذه الإمارة كانت عناصرها موزعة في جهات حلب وديار الشام حتى بانياس وفي حمص ثم انتقل نشاطها إلى جبال « البهرة » كما ذكرنا حتى وقت وفود « سنان راشد الدين » وتسلمه شؤون هذه المجموعة فاتخذ من « مصياف » قاعدة له بالنظر لموقعها الجغرافي المهم ولوجودها في أول السهل المؤدي إلى الداخل ، وعلى أبواب الجبل الكبير ولأن « مصياف » بلد صغير جميل هادىء وهبه الله من الجمال والبهاء قسطاً وافراً وخصّه بالينابيع الغزيرة والبساتين الوارفة والضواحي الساحرة ، وقد شاد « النزارية » فيها الدور الباذخة والصروح العالية حتى أصبح ذلك البلد الصغير بفترة قصيرة خصيباً بالثروة غنياً بالآثار . . . زد على ذلك اعتدال مناخه وغزارة مياهه وصفاء جوه وعذوبة نسيمه ووقوعه في سفح جبل عالٍ عليه تخيم الخضرة والرواء ، ولقد كان يزيد في منعة البلدة الصغيرة سورها العظيم ذو الأبواب الأربعة وقلعتها الكبرى الواقعة بالجهة الشرقية والقائمة على صخرة كبرى ذات جوانب عمودية يصعب تسلقها والتي لا يمكن الدخول إليها إلاّ من باب واحد

إذا دخل منه أي زائر كان عليه أن يسير في دهليز معقود يتصل من قمة القلعة وما وراءها وفوقها من الغرف والحجرات وكلها مبنية من الحجر الصلد ، وعلى السور أبراج متلاصقة مخصصة للحامية التي كان يوكل إليها أمر رمي المهاجمين بالسهام بحيث يستحيل أخذها بالهجوم إلاّ بعد قتل المئات والألوف .

وكأني بهؤلاء المقاتلين المقيمين فيها قد أمنوا على أنفسهم من هجمات الغزاة والفاتحين والمستعمرين وهزأوا بأساليبهم وخططهم ، وفي هذه القلعة كانت تعقد المؤتمرات السياسية ومجالس الحرب وخاصةً عندما فكّر « صلاح الدين الأيوبي » بغزوها واحتلال قلاع « النزارية » في جبال « البهَرة » وكان أن عاد إلى ضميره ووجدانه بعد أن رأى الأخطار الصليبية تهدد دنيا العرب والإسلام وهكذا صعد إلى تلك القلعة وعقد راية الصلح مع « سنان » وتعاهدا على التعاون والاشتراك في مقارعة العدو الدخيل « الصليبيين » وهكذا نرى « صلاح الدين وسنان » يدخلان معاً وجنباً إلى جنب معركة « حطين » وبعدها « القدس » ويحققان الانتصارات التي كتبت بأحرف ذهبية على صفحات التاريخ . فقد ذكر التاريخ :

إن « صلاح الدين الأيوبي رأى بعد أن اجتاز سهول

« بانياس » ووصل إلى أغوار فلسطين أن لا يقدم على فتح مدينة إلاّ على ضوء المعلومات الصحيحة وبعد الوثوق من النصر ، لا سيما وقد كان لديه قناعة تامة بأن سقوط « بيت المقدس » بأيدي جيوشه لن يتم مباشرة إلاّ بعد أن يدخل مع الصليبيين بمعارك طاحنة يقضي فيها على معنويات هذا الجيش الكبير الذي كان يعسكر في طبريا والكرك وعكاء وحيفا ونابلس وعسقلان ، وبعد أن يفرض على « القدس » حصاراً عنيفاً ضيـّقاً ينقطع معه المدد ، كما رأى من الضرورة أيضاً عزل الحاميات المتفرقة في المعاقل والحصون عن بعضها البعض وتطويقها تطويقاً محكماً..وهكذا حوّل وجهه عن «بيت المقدس» وتركها وشأنها وقسّم جيشه إلى فرق مستقلة عهد بقيادتها إلى قواد مجربين وجّههم إلى النقاط المرسومة والمعروفة بموقعها ... وكانت في هذه الفترة قد وصلت إلى المكان المخيم فيه الفرقة « النزارية » التي سلكت طريق الساحل ، فرأى « صلاح الدين » أن يوجههم بمهمات صعبة أهمها رصد حركات العدو ومعرفة عدده وعدته وسلاحه ، ثم محاولة بذر بذور الشقاق بين أفراده وقواده ، وهكذا تنكر هؤلاء كعادتهم في الحروب وانخرطوا في الجيش الصليبي يفسدون على القواد خططهم ويزرعون بذور التفرقة بين الجماعات الصليبية المتنافرة ،

وكانوا في الوقت ذاته على اتصال بقيادة « صلاح الدين » يطلعونه على كل شاردة وواردة ، وكان صلاح الدين من جهته لا يتقدم من مكان إلى آخر ، ولا يقدم على احتلال مدينة أو موقع إلاّ على ضوء التقارير التي ترده من هؤلاء المغامرين ، وكل هذا مكّنه من تحقيق انتصارات سريعة ، وكسب معارك حاسمة وتحويل جيش العدو إلى قطع متفككة منهوكة القوى تتصارع في سبيل المغانم والسيادة.وعرف قواد الصليبيين بأن « للفدائية » اليد الطولى بإفساد خططهم وعرقلة أعمالهم فكانوا يوعزون إلى جيوشهم بالاحتراز منهم وبمضاعفة الرقابة عليهم ، ولكن أنى لهم ذلك وهم مزيج من أمم وشعوب مختلفة اللغات والعادات ، فكان منهم الإفرنسي والجرماني والاسباني ، والسكسوني وغيرهم وكل هذا أوجد لديهم جواً من الحسد والنزاع والتنافس ، فأصبح القائد في الميدان لا يستطيع أن يلقي أوامره إلاّ على أبناء جنسه وطائفته ، وهكذا ضعفت ثقة الجيش بقواده ، والقواد بالأفراد وكل هذا مهّد لانتصار العرب وإحراز التقدم في الميادين .

أمّا الجيش العربي فكان كتلة واحدة تجمعه قيادة واحدة، وتظلله راية واحدة . . . يحب الكبير منه الصغير . . . والصغير الكبير ، ويضحي القائد بمصلحته الخاصة في سبيل جندي صغير ،

وكانوا فوق كل ذلك متساوين بالحقوق والواجبات تقسّم عليهم الغنائم بالعدل ، وكانوا أيضاً يعتقدون بأنهم يحاربون في سبيل واجب أمرهم به الله ، فلا غرابة بعد ذلك إذا ما قدموا أنفسهم عن عقيدة وإيمان في سبيل هذه الفكرة المثلى وهذا الهدف الأسمى .

أجل بعد أن تمّ لصلاح الدين إحراز النصر في معركة « حطين » وغيرها تقدم باتجاه « القدس » فطوق المدينة وبعد عشرة أيام من المعارك التي كان يخوضها جيش العرب مع الصليبيين بالنبال . . . وجّه « صلاح الدين » أمراً عاجلاً إلى قواته باقتحام الباب الشمالي المسمّى « باب العمود » أو « كنيسة صهيون » فتراجع الصليبيون عن الأسوار أمام وابل من نبال « الفدائية » وهكذا اقتحم العرب الحواجز ووصلوا إلى الخندق ثم جاوزوه والتصقوا بالسور وبدأوا بنقبه تحت وابل من السهام والقذائف المشتعلة ، ولم يطل الوقت فالمنجنيقات تمكنت من إحداث ثغرة فتحت الباب أخيراً فاندفعت الجيوش المجاهدة إلى المدينة المقدسة واختلط الحابل بالنابل أمام الأسوار ، وسالت الدماء كالأنهار وتساقط الرجال كتساقط أوراق الأشجار أمام العاصفة الهوجاء . ويذكر التاريخ :

إن الصليبيين أشعلوا النار في المباني وكان قصدهم إحراق المدينة بأكملها واتهام العرب بذلك ولكن « صلاح الدين » فطن لهذه الحيلة فأمر قواده بتأليف فرق للعمل على إطفاء النار . . . وعند الغروب خيّم الهدوء على المدينة المقدسة ، وهدأت النفوس الثائرة أو بلغة أصح تعبت من القتال ، فرفعت الأعلام العربية على الشرفات والمباني والأسوار ، وفي تلك الساعات الحاسمة وجّه « باليان » الصليبي إلى « صلاح الدين » نداء يقول فيه :

« اعقد شروطك معنا فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ونحرقن أموالنا ومتاعنا ولا نترككم تغنمون ديناراً أو درهماً واحداً ، ولا تأسرون أو تسبون رجلاً أو امرأة أو طفلاً ، فإذا فرغنا من هذا قمنا على الصخرة فخربناها وألحقنا المسجد الأقصى وغيره من الأماكن المقدسة بها ثم نقتل بعد ذلك أسرى المسلمين ولا نترك لنا أو لكم دابة أو حيواناً إلاّ وقتلناه ، ثم نخرج إليكم في جمعنا نقاتلكم قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه فلا يقتل الرجل منا حتى يقتل منكم أمثاله فنموت أعزاء أو نظفر كرماء .

ففكّر « صلاح الدين » طويلاً بالأمر ثم أجاب الصليبيين إلى طلبهم على أن يخرج منهم من يريد الخروج سالماً في مدة

أربعين يوماً ، وأن يدفع الرجل منهم عشرة دنانير والمرأة خمسة والولد اثنين .

وهكذا ظلّ « صلاح الدين » في فسطاطه على جبل « الزيتون » يذيع الأوامر الملكية على الجيش المنتصر طالباً إليه عدم الاعتداء على الآمنين من السكان أو قتل أحد من الصليبيين الذين استسلموا ، كما طلب إلى السكان المدنيين فتح متاجرهم والانصراف إلى صناعتهم وزراعتهم ، ورتّب على أبواب المدينة أمناء ليأخذوا من الصليبيين الراحلين الضريبة المفروضة عليهم ، وكانت أوامر « صلاح الدين » شديدة بضرورة معاملة النساء معاملة حسنة ، وعدم التعرض لرجال الدين الذين يمارسون طقوسهم الدينية كما أمر القواد أن يكرموا ملك القدس الصليبي الذي استسلم .

وذكر التاريخ أيضاً :

إن الصليبيين كانوا يتحدثون عن موقف « صلاح الدين » البطولية ومثاليته وخاصة عندما بادر إلى توزيع الأموال والهبات والدواب لنقل المرضى والشيوخ وعن رأفته بالأطفال ، وعطفه على الضعفاء والفقراء . . . ويشهدون بأن جنوده كانوا على غراره في المروءة والشهامة .

هذا الفصل قد يبدو للقارىء الكريم أنه خارج عن الموضوع ولكننا عندما فكرنا بكتابته وضعنا أمام أنظارنا إيراد لمحة عن « النزارية الفاطمية » التي انبثقت من الخلافة الفاطمية في مصر ، بعد وفاة الخليفة الثامن والأخير « المستنصر بالله » وللتدليل على أن هذه المجموعة ساهمت مساهمة فعّالة في الحروب الصليبية ، ولم يستطع بعض المؤرخين إغماض العيون عن هذه الحقائق .

ومهما يكن من أمر فإن « الدولة النزارية » سواء في سورية أو في إيران وبقايا الخلافة « المستعلية » كلاهما وقفتا عاجزتين عن استعادة تلك الأمجاد العظيمة التي كانت سائدة في عهد الخلفاء الفاطميين في الديار المصرية والمغرب وبلاد الشام وفلسطين واليمن والحجاز وصقلية .

لقد كان لتلك الدولة صفحات بيضاء في سجل الحضارة ، وأسطر من ذهب في تاريخ العلم . . . وعندما عصفت رياح الأنانية والحسد وحب السيطرة والجنون . . . أي عندما أفسح المجال للعناصر « الغريبة » الدخيلة زالت هذه الدولة ولم يبقَ منها سوى « دويلات » لم تستمر طويلاً . . . وإن أبلغ ما قيل عن الفاطميين ما ذكرته « دائرة المعارف » :

بأن مملكتهم كانت ممتدة من سواحل البحر المتوسط إلى داخلية تركستان وهي عبارة عن كل القسم الغربي من آسيا من حدود خراسان إلى جبال سورية ومن بحر قزوين إلى الشواطىء الجنوبية من البحر المتوسط . . . ناهيك عن الأجزاء الواقعة على ساحل البحر الأحمر .



بيان وتعليقات

أولاً – عندما أخذنا على عاتقنا إصدار هذه الموسوعة التاريخية للخلفاء الفاطميين قررنا أن نجعل عدد أجزائها عشرة بدل ثمانية وقد اعتبرنا « المستعلي بالله » و « الآمر بأحكام الله » في عداد الخلفاء بالرغم من أن فرقاً عديدة من « الإسماعيلية » لا تقر بهما ولا تعترف بخلافتهما على اعتبار أنهما تسلما شؤون الدولة والخلافة دون نص شرعي وبطريقة الاغتصاب والقوة ، وقد فصلنا كل هذا في أجزاء الموسوعة . . . ولكن بقي علينا أن نأتي ولو لماماً على « الوكلاء » الأربعة الذين تسلموا شؤون الدولة الفاطمية بعيد مقتل الخليفة العاشر « الآمر بأحكام الله » وهم : الحافظ ، والظافر ، والفائز ، والعاضد ، وهؤلاء الأوصياء وأن يكونوا من الأسرة الفاطمية إلا أنهم ليسوا من شجرة الأئمة وغير معترف عليهم كخلفاء لأن الخليفة بالتعبير الفاطمي يجب أن يكون « إماماً » وصاحب نص شرعي

من الإمام الذي سبقه ، وكل هذا لا يمنع من التعرض لذكرهم في الجزء العاشر والأخير .

ثانياً — فاتنا في الأجزاء السابقة أن نذكر : ان الفاطميين برغم أنهم في أول قيامهم ألزموا جميع الموظفين والعمّال الذين استخدموهم على اعتناق المذهب الفاطمي ، إلا أنهم عادوا فيما بعد ليطبقوا سياسة التسامح الديني وإعطاء الحرية للفرد أن يعتنق ما يشاء ، حتّى أن الوزراء وهم أكبر موظفي الدولة لم يكونوا جميعهم مسلمين فكان منهم المسيحيون حتّى بين وزراء السيوف ، كما لم يكن جميع الوزراء المسلمين فاطميين ، أجل . . . كان منهم السني والشيعي الاثني عشري خاصة بين وزراء السيوف الذين أصبحوا المتصرفين الحقيقيين في شؤون الدولة ، وأصبح القضاة والدعاة نواباً عنهم .

ونلاحظ أن عدد من تولّى الوزارة خمسة وستون وزير منهم خمسة وخمسون مسلماً وستة « ذميين » وأربعة أسلموا قبل أو اثناء وزارتهم ، ولقد رأينا أن معظم الوزراء « الذميين » وهم من المسلمين كانوا يتعصبون لأبناء دينهم فيعينوهم في مختلف الوظائف التي يبعدون المسلمين عنها ، وقد أدّت هذه السياسة إلى شكوى المسلمين وقيام كثير من الأحداث والاضطرابات أدّت إلى تدخل الخلفاء والوقوف بوجه حروب

أهلية دينية كادت تقع بسبب هذه الأوضاع ، فالخليفة « العزيز بالله » اضطر إلى القبض على « عيسى بن نسطورس » بعدما تصاعدت الشكوى عن تحيزه لأبناء دينه كما أن الخليفة « الحاكم بأمر الله » أمر بقتل « فهد بن إبراهيم » بعدما ثبت عليه تحيزه للمسيحيين ، و « بهرام » وزير « الحافظ » استكثر من استخدام أبناء جنسه ، ودينه « الأرمن » كما أباح لهم بناء الكنائس إلى جانب المساجد لدرجة أنهم أصبحوا يهددون المسلمين .

وكما أن الفاطميين لم يتقيدوا كثيراً بديانة وزرائهم فإنهم لم يتقيدوا بجنسياتهم فوزر لهم وزراء من جنسيات مختلفة ، فكان من بين وزراء الأقلام ستة عشر وزيراً من المصريين وباقيهم من الجنسيات المختلفة ، وكان كثير من وزراء السيوف من الأرمن الذين لعبوا دوراً هاماً في حياة الدولة ، كما أننا نلاحظ أنه ليس بين وزراء السيوف أي وزير مصري إلا إذا اعتبرنا « أحمد بن الأفضل » و « رزيك بن طلائع » الأرمنيين الأصل . . . مصريين المولد .

ومهما يكن من أمر فإن فترات الاستقرار السياسي والاقتصادي هي الفترات التي ظل فيها الوزير في الحكم مدة طويلة ، بخلاف الفترات الأخرى التي تعرضت فيها البلاد

لهزات سياسية أو حروب أهلية ومجاعات . فنجد أن الوزراء لم يمكثوا إلاّ فترات قصيرة جداً .

ومن أمثلة النوع الأول : « ابن كلس » و « الجرجرائي » و « اليازوري » في النصف الأول للدولة ، و « بدر الجمالي » وابنه « الأفضل » و « المأمون » و « طلائع بن رزيك » في النصف الثاني ، فإن البلاد كانت في حالة رخاء واستقرار نتيجة بقاء الوزراء مدداً طويلة في الحكم .

في حين أنه في عهد « الحاكم بأمر الله » وفي الفترة الأخيرة من عهد « المستنصر بالله » تعرضت البلاد المصرية الفاطمية إلى حالة من الاضطراب السياسي فكان الوزراء تساقطون كأوراق الخريف ؛ وأمّا في أواخر عهد الدولة الفاطمية فقد تميّز الوضع السياسي العام بالصراع بين الوزراء والطامعين في الوزارة والمناصب الكبرى ، فأصبحت مدة بقاء كل وزير تتوقف على مدى سيطرته على الأمور ومقدرته في القضاء على محاولات منافسيه .

ومن الأمور الملفتة للنظر ، تولي أكثر من فرد من أفراد أسرة واحدة للوزارة مثل « عيسى بن نسطورس » وأولاده ؛ و « آل الوزّان » و « المغافقي » من وزراء التنفيذ . وأسرة « بدر الجمالي » و « الصالح طلائع بن رزيك » من وزراء

السيف ، كما يلاحظ أن الوزارة في عهد وزراء السيوف أصبحت شبه وراثية في بعض الأحيان .

« فبدر الجمالي » يجعل ابنه « الأفضل » وليّاً لعهده ، ونرجح أنه لولا قتل « الأفضل » لكان أوصى لأولاده بخلافته بعد موته ، كذلك « الصالح بن رزيك » فقد جعل ابنه «رزيك» وليّاً لعهده وتولّى الوزارة بعد مقتل والده ، و « شاور » أشرك ابنه « الكامل » معه في الحكم ، ولو أن الأمور سارت على ما يشتهي لوزر بعد أبيه .

ويجب أن لا ننسى أن الأطماع حدت « ببدر الجمالي » إلى تزويج ابنته من الخليفة « المستنصر بالله » التي ولد منها « المستعلي بالله » وهكذا « الصالح بن رزيك » الذي زوّج ابنته « للعاضد » آخر « وكيل » على الخلافة الفاطمية في مصر ، ولعل الآمال كانت تراودهما بنقل الخلافة إلى أسباطهما .

وأخيراً : لا بد من القول بأنه في فترات عدم الاستقرار وعلى الأخص في أواخر عهد « المستنصر بالله » نرى أسماء معيّنة تتولّى الوزارة أكثر من مرة ، كما أن الوزير عندما يترك الوزارة كان يتولّى عملاً آخر ، وهذه سابقة لم يحدث مثلها فيما مضى .

فهرست الموضوعات

مصادر البحث التاريخية

تاريخ الدولة الفاطمية — حسن إبراهيم حسن ١٩٥٨

الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية ، حسن إبراهيم حسن ١٩٣٢

تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، حسن إبراهيم حسن . ١٩٤٦

النظم السياسية بالاشتراك مع علي إبراهيم حسن ، حسن إبراهيم حسن . ١٩٣٩

عبيد الله المهدي بالاشتراك مع طه أحمد شرف . ١٩٤٥

المعز لدين الله بالاشتراك مع طه أحمد شرف . ١٩٤٧

كنوز الفاطميين ، زكي محمد . ١٩٣٧

تاريخ جوهر الصقلي ، علي إبراهيم حسن . ١٩٣٣

في أدب مصر الفاطمية ، محمد كامل حسين ١٩٥٠

الصليحيون ، حسين همذاني ١٩٥٥

النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ، محمد جمال سرور ، ١٩٥٧
مصر في عهد الدولة الفاطمية ، محمد جمال سرور ١٩٥٧
افتتاح الدعوة ، النعمان بن حيّون —
المجالس والمسايرات ، النعمان بن حيون —
الهمة في آداب أتباع الأئمة ، محمد كامل حسين ١٩٥٠
عيون الأخبار ، إدريس عماد الدين —
مجموعة الوثائق الفاطمية ، جمال الدين الشيّال ١٩٥٨
الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ، محمد عبد الله عنان . ١٩٣٧
نظم الفاطميين ورسوطم في مصر ، عبد المنعم ماجد ١٩٣٧
السجلات المستنصرية ، عبد المنعم ماجد . ١٩٥٤
الامام المستنصر بالله الفاطمي ، عبد المنعم ماجد . ١٩٦١
الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه، عبد المنعم ماجد ١٩٥٩
نظم الحكم في مصر الفاطمية ، مصطفى عطيه مشرفه ١٩٤٨
سيرة جعفر الحاجب ، و . إيفانوف . ١٩٣٠
صلة تاريخ الطبري ، غريب بن سعد —
كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ، الباقلاني. ١٩٣٩
رسائل الحاكم بأمر الله كتب سنة ٤٠٨ ، (مخطوط بدار الكتب المصرية) .

المصادر الأجنبية

The Alleged - Founder of Ismaïlism - Bombay - W Ivanow - 1946 .

The Origins of Ismaïlism : B. Lewis .

The Quaddahid Legend : Abbas Hamdani .

Mémoires sur les Quarmates de Bahrein et les Fatimits - Leyden - 1886 (De Goeje)

Polimics on the origin of the Fatimis - Caliphs - (Prince - Mamour - London 1934) .

Fatimid - Degrees - Stern - S.M. London .

Quelques Chroniques Anciennes aux derniers Fatimides 1937 .

L'impérialisme des Fatimides et leur propagande (1942-1947) .

Essaie sur l'histoire des Ismailiennes de la Perse : (Defremery, M.C.)

Fragments relatif à la Doctrine des Ismailis Hamdani , Paris , 1874 .

Studies in The Early Persian Ismaïlism - Leyden - 1948 .

The rise of the Fatimids - (Calcuta,) 1942 .

A Guide to Ismaïli Literature: London, 1933. W. Ivanow

A short history of the Fatimid Khalifate - London (1923).

Description du Maghreb — Leiden 1860.

The letters of Al Mustansir — School of oriental of London 1934.

Enquête **aux pays du Levant — « M. Barrès ».**